

## الطمع فى رحمة الله - ١

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم :

إن أدنى أهل الجنة منزلاً رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، ومثلاً له  
شجرة ذات ظل ، فقال :

أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة ، فأكون فى ظلها ، فقال الله : هل عسيت أن  
تسألنى غيره ؟

قال : لا وعزتك ، فقدمه الله إليها ، ومثلاً له شجرة ذات ظل وثمر .

فقال : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، وأكل من ثمرها .

فقال الله : هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيره؟

فيقول : لا وعزتك . فقدمه الله إليها ، فيمثل الله شجرة أخرى ذات ظل وثمر

وماء ، فيقول : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، وأكل من ثمرها .  
وأشرب من مائها .....".

حديث صحيح أخرجه مسلم وأحمد والترمذى وغيرهم .

هذا جزء أول من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - رواه عن الرسول  
صلى الله عليه وسلم . عن أدنى أو أقل أهل الجنة منزلاً أو درجة يوم القيامة . ونحن نعلم  
أن الناس يوم الحساب ثلاثة أنواع :

الأول: يدخل الجنة برأى ربه ثواباً على إيمانه وطاعته والتزامه .

و الثانى : يدخل النار جزاءً وفاقاً لكفره وظلمه وبغيه .

و الثالث : يلقى على الأعراف ، أى بين الجنة والنار لتقصير هنا أو هناك ..

وهذا النوع الثالث أقرب إلى الجنة لأن الله - جل وعلا - صرف وجهه عن النار

وكفاه شرها وعذابها .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آيات مستفيضة ، نكتفى منها بالإشارة إلى موقف النوع الثالث .

يقول تعالى : **«وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَيَتَّبِعُهُمُ الْغَيْبُ وَأَعْيُنُهُمْ فِي غَیْبِنَا مُرْسَلَةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾»** (الأعراف : ٤٤-٤٧)

يقول المفسرون : إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيناتهم فليسوا من أهل الجنة ولا أهل النار .

وفي الآيات التي قرأناها قبل قليل نجد إشارة إلى الحجاب الذي يفصل بين الجنة والنار ، ويقف عليه أهل الأعراف ، وهو سور ذكر في آية أخرى .

حيث يقول الله تعالى :

**«.....فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُدًى بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ»** (الحديد : ١٣)

هذا السور يمنع وصول أهل النار للجنة ، وعلى هذا السور رجال الأعراف يعرفون كلاً من أهل النار وأهل الجنة بسيماهم أي بعلامتهم التي ميزهم الله بها ، فأهل النار يُعرفون بسواد وجوههم ، وأهل الجنة يُعرفون ببياض وجوههم .

ورجال الأعراف يحبسون على السور حتى يقضى الله فيهم ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، وإذا نظروا إلى أهل النار ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

رجال الأعراف ، ينظرون دائماً أو معظم الوقت إلى أهل الجنة ، ويرجون ربهم أن يقربهم منها ، وهم بهتة الوضع أو في أهل الجنة منزلاً ، بحكم أن الله صرف وجوههم عن النار ، والصرف عن النار يعد رحمة من رحمة الله .

"مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ" وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (الأَنْعَامُ ١٦)  
 فأهل النار يمتثلون صورةً يهرب منها الناس جميعاً ، ويسعون إلى الإبتعاد عنها  
 وتضم رؤساء الكفرة و أتباعهم ، الذين ظنوا أن جمعهم للمال واستكبارهم عن الإيمان  
 سيحميهم من العذاب يوم القيامة . ولكن هيهات ! فرجال الأعراف يسألونهم في توبيخ و  
 تفریح ونهكم مشيرين إلى أهل الجنة .

"أَهْتَوْا لَا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ....." (الأعراف ٤٩)  
 ويرزقون ذلك بمخاطبة أهل الجنة : "...أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا  
 أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ" (الأعراف ٤٩)

وفي قصصنا التي يقدمها لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نجد تعبيراً  
 عملياً أو تطبيقياً واقعياً لأشواق أهل الأعراف أو أدنى الناس منزلاً من الجنة، لدخول  
 الجنة والاستمتاع بها ، انطلاقاً من طمعهم في رحمة الله سبحانه التي وسعت كل شيء .  
 فتتمثل للواحد منهم شجرة ذات ظل . مجرد شجرة تظهر أمامه ، فيدعوره  
 ويطلب منه أن يقترب منها ليكون في ظلها ، فيستجيب له الرحمن الرحيم

و يسأله : هل عسيت أن تسألني غيره ؟

أى هل ستطلب منى بعد ذلك طلباً آخر .

فيقول له : لا وعزتك .

ثم يمثل له شجرة ذات ظل ، وفيها ثمر .. أى شجرة أفضل من الشجرة السابقة .  
 لأن بها شاراً إلى جانب الظل ، وهنا تتحرك غريزة الطلب والرغبة في الزيادة ، فيطلب  
 صاحبنا من ربه أن يقره منها ، ويستجيب له ، سائلاً إياه : هل عسيت إن أعطيتك ذلك  
 أن تسألني غيره ؟

فيقول : لا وعزتك . فيمثل له شجرة أخرى ذات ظل و ثمر و ماء . ولا يتردد

صاحبنا في الطلب من ربه أن يقدمه إليها .. وحين يحقق طلبه ، يقول له : هل عسيت إن

فعلت أن تسألني غيره ؟

## الطمع في رحمة الله - ٢

عرفنا في الحلقة السابقة من حديث أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه كيف صور الرسول - صلى الله عليه وسلم - طمع أدنى أهل الجنة منزلاً ممن صرف الله وجهه عن النار ، في رحمة الله ، حيث يطمع في شجرة ذات ظل ، ثم شجرة ذات ظلٍ وثمر ثم شجرة ذات ظلٍ وتمرٍ وما .

وهنا يسأله رب العزة :

" هل عسيت إن فعلتُ أن تسألني غيره؟

فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيقدمه الله إليها . فيبرز له باب الجنة .

فيقول : أى رب ، قدمنى إلى باب الجنة ، فأكون تحت سجاج الجنة

فأرى أهلها ، فيقدمه الله إليها فيرى الجنة وما فيها .

فيقول : أى رب ! أدخلنى الجنة ، فيدخل الجنة . فإذا دخل الجنة قال :

- هذا لى ؟

فيقول الله له : تمن ، فيتمنى ، ويذكره الله عزوجل سل من كذا وكذا ،

حتى إذا انقطعت به الأمانى .

قال الله : هولك وعشرة أمثاله ، ثم يدخله الله الجنة ، فيدخل عليه

زوجاته من الحور العين : فيقولان : الحمد لله الذى أحياك لنا ، وأحيانا لك .

فيقول : ما أعطى أحدٌ مثل ما أعطيت "

صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

نرى في الجزء الثانى من حديث أبى سعيد الخدري - رضى الله عنه -

تكملة لموقف أدنى أهل الجنة منزلة ، أو أهل الأعراف الذين صرف الله وجوههم عن

النار فاستشرفت أبصارهم وقلوبهم الجنة وأهلها ، وتمنوا أن يكونوا من أهلها ،  
ويبتعدوا عن أهل النار وما معهم التي تذكر بالسيئات والآثام .

لو أن أهل الأعراف تفوقوا في حسناتهم ، لدخلوا الجنة بفضل الله ،  
وصاروا بمنأى عن هذا الوضع المقلق الذي يجعلهم يرون الجنة ولا يستطيعون  
الدخول إليها ، ويشاهدون النار وما يجري فيها من عذاب ؛ وهو ما يثير فيهم الندم  
والحسرة بسبب تقصيرهم .

وقد رأينا من تقع مكانته في أدنى الجنة ، أي قريبا منها ، كيف يطمع في  
رحمة الله ، ويطلب المزيد . وكما حقق له الخالق جل وعلا رغبة تتصوّر له ،  
تمثلت له رغبات أخرى يطلب تحقيقها ، مع أنه في كل مرة تتحقق فيها رغبة  
يقول لربه " لا وعزتك لا أسألك غيره" .

لقد حقق له أولا رغبته في الجلوس تحت شجرة ذات ظل ، وكان قد قرر ألا  
يسأل ربه شيئا آخر بعد تحقيق هذه الرغبة وبتكرّر الأمر حين يرغب في شجرة  
ذات ظل وماء وشجرة ذات ظل وثمر وماء .

ويقول له ربه : هل عسيت إن فعلتُ أن تسألني غيره ؟

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره . وبعد أن ينال المراد ، يُفترض أن يكف  
عن الطلب . ولكنه لا يكف ويطلب ما هو أكبر من الشجرة والظل والثمر والماء .  
إنه يطلب الجنة نفسها : أي رب قدمنى إلى باب الجنة ، فأكون تحت  
سجاف الجنة فأرى أهلها " .

إنه يتمنى أن يقترب من الباب ، ليكون تحت حافة الجنة أو السجاف  
وهو الإطار أو الشريط الخارجى الذى يظلل الباب .. ولكن الرحمن الرحيم يفاجئته  
بتحقيق ما هو أكبر من طلبه : يقدمه إلى الجنة ليرى أهلها وما فيها .  
ولكن هل تتوقف المطالب من أدنى أهل الجنة منزلة ؟

إنها لا تتوقف ، فالطمع فى رحمة الله لا حد له ، ورحمة الله قريب من  
المحسنين ورحمته وسعت كل شىء ، و نجد طلباً أكبر من كل ما سبق ، حيث  
يطلب أدنى أهل الجنة منزلةً دخول الجنة ومشاركة أهلها : رب أدخلنى الجنة ،  
فيدخل الجنة . وتدهشه المفاجأة فإذا به يسأل : هذا لى ؟

و تكون الإجابة تعبيراً عن سعة الرحمة و امتدادها : تمن .

أى إن الحق سبحانه يطلب منه هذه المرة أن يطلب المزيد ، ويتمنى ما  
يريد حتى تنقطع به الأمنى ، أى لا يجد أمنية فى ذهنه أو داخلها نفسه يريد  
تحقيقها . فقد تحققت جميعاً بفضل الخالق الأعظم و صاحب الكون وما فيه جل  
شأنه و عظم جاهه .

إنه يحقق له ما يريد وعشرة أمثاله ويدخل الجنة برحمة الله .

ثم تدخل عليه زوجته من الحور العين - فى مفاجأة لا يتوقعها ولا  
ينتظرها.. وليست المفاجأة فى دخولهما فحسب ، ولكن فيما يقولانه حمداً لله  
و شكراً على نعمائه حيث تقولان : الحمد لله الذى أحياك لنا ، وأحيانا لك ..  
أى خلقك لنا وخلقنا لك ، و ضمنا فى دار النعيم الدائم الخالد إلى ما شاء الله .

إن هذه القصة الشائعة حثنا على الأمل فى رحمة الله ، وعدم  
الياس من رحمته . وندفعنا دفعاً إلى معالجة تقصيرنا وقصورنا بكل ما نستطيع .  
فكلما أكثرنا من الحسنات ازداد أملنا فى المولى سبحانه و دخول جنته والبعد عن  
النار والتحرر من حبس الأعراف ووضع القلب ..

ولا شك أن زراعة الخير فى الدنيا سيكون حصادها الجنة فى الآخرة  
بإذنه تعالى : "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا  
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ  
وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الْمُحْسِنِينَ" (آل عمران . ١٢٢-١٢٤)

## القول و الفعل

عن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول :  
" يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتذلق أفتابُ بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

فيجتمع إليه أهل النار . فيقولون :  
يا فلان ، مالك ، ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟  
فيقول ، بلى ، كنت أمر بالمعروف ، ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية "  
حديث صحيح ، أخرجه البخارى ومسلم .

.....  
.....  
.....  
هذه قصة قصيرة جداً ، ولكنها طويلة الدلالة ممتدة المعنى فى كل زمان ومكان إذ إنها تعبر عن آفة شائعة بين الناس ، وهى عدم تطابق القول مع الفعل أو الانفصام بين القول والفعل .

و هذه الآفة مرفوضة فى الإسلام ، ويحذر منها القرآن الكريم فى أكثر من مناسبة ، فيقول الحق سبحانه :  
"يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ" (الصف ٢٠-٢١)  
ثم إنها تحول إلى سلوك مذموم يودى بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار ، لأن صاحبه تحول إلى " منافق " ، يقول فى العن غير ما يخفى فى الباطن .

"وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا حَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا حَنُّ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٦﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلِيلَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتْ جِحْرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ" (البقرة ١٦-١٧)

و تصل هذه الآفة إلى درجة الخطورة حين يأمر المصاب بها الناس  
بالمعروف ولا يفعله ، وينهاهم عن المنكر ويمارسه ، ولذا يصوره الرسول - صلى الله  
عليه وسلم فى القصة التى يتضمنها الحديث الشريف تصويراً حياً مؤثراً ، يمثل عبرة  
لمن يعتبر ، حيث يؤتى به يوم القيامة ، ويلقى فى النار ، أى إنه من أهل النار .

وحين يدخلها تخرج أمعاؤه من بطنه ، وتمتد أمامه ، وهو يدور وهى متصلة  
به فكأنه الحمار المربوط بحبل طويل إلى الرحى يلف حولها ليحركها وهى ثابتة فى  
مكانها أو كما قال الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - تندلق أقتاب بطنه -  
أى تخرج الأمعاء من بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

والرحى من الأدوات التى كان يستخدمها الفلاحون منذ القدم حتى وقت  
قريب ولعلها مازالت موجودة فى بعض القرى وتتكون من حجرين مدورين ،  
يوضع أحدهما فوق الآخر الذى له قائم أو عمود فى مركزه يجعله يدور حوله ،  
ويوضع بينهما الحب الذى يراد طحنه .

و التشبيه بالرحى يأتى لقربه من الناس آنئذ ، فالذى خرجت بطنه  
وامتدت ويدور بها فى النار ، يشبه دوران الحمار فى الرحى ، حيث يحركها لتؤدى  
وظائفها فى طحن الحبوب من قمح وشعير وغيرهما .

إن هذا المنظر الذى يكون عليه الأمر بالمعروف ولا يأتية ، والناهى عن  
المنكر ويفعله ، يشد أهل النار ، ويجعلهم يتساءلون :

يا فلان . مالك . ألم تكن تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر؟

إنهم يستغربون ، أو يندهشون لوجود بينهم ، فمن المفترض أن مثله لا  
يدخل النار وقد استجاب لمنهج الإسلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

كما يقول تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"....." (آل عمران : ١١٠)

وكما يقول أيضا: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (آل عمران : ١٠٤)

ولكن صاحبنا ، كان يقول غير ما يفعل ، و يطبق عكس ما ينادى به ، فكان مثله مثل بنى إسرائيل الذين أمروا الناس بالبر ، ونسوا أنفسهم ، وأشار إليهم الحق سبحانه بقوله : "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (القرة : ٤٤)

و صاحبنا هو الذى يعنيه الشاعر بقوله :

لا تنه عن خلق و تأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

إن منهج الإسلام يقوم على المطابقة بين القول والفعل ، بين الاعتقاد والسلوك والذين يظنون أن الشكل يكفى عن الجوهر واهمون ، ولعل الحكمة الشعبية عبّرت عن ذلك منذ زمن بعيد حين قال البسطاء : " ربنا رب قلوب .. " أى إن السلوك لا يعبر بالضرورة عما فى القلب بالضرورة .

إن من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، مقصر فى حق نفسه وحق الإسلام و المسلمين ومن ينهى عن المنكر ويفعله ظالم لنفسه وللإسلام و المسلمين ، ولذا كانت عقوبته شديدة يوم القيامة ، لدرجة أن تخرج أمعاؤه من بطنه ، و يدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

إن خيرية الأمة الإسلامية تقوم على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذه الخيرية تتحقق بالتنفيذ الصادق المخلص ، أما التناقض أو الفصام بين القول والفعل فليس من الإسلام فى شىء .

\*\*\*\*\*

## دعاء السفر عند الحج

قال ابن جُريح : أخبرني أبو الزبير : أن علياً الأزدى أخبره أن ابن عمر علمهم : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر . كبر ثلاثاً . ثم قال : "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" (الزخرف : ١٣-١٤) اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والنقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطوِّعنا بعده . اللهم ، أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل .

اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر ، وكآبة المنظر وسوء المنقلب ، في المال والأهل .\*

و إذا رجع قالهن . وزاد فيهن : " آيبون . تائبون . عابدون . لربنا حامدون " أخرجه مسلم .

.....  
 يمثل السفر بصفة عامة مشقة للناس ، وخاصة المرضى وكبار السن وأصحاب الضرورات ، والرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا من خلال ما رواه ابن عمر - رضى الله عنهما ، كيف نبدأ السفر بالدعاء ...  
 و الدعاء كما نرى في العبارة هو الطريق لرضا الله . وإذا رضى الله عن عبد يسرله أمره ، وسهل له الصعب ، و حقق له ما يتمناه :

"وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ..... " (غافر : ٦٠)  
 "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَلِإني قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَتْ جِيبُوا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ " (البقرة : ١٨٦)

و يبدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعاءه ، مند أن يرتقى راحلته أو ناقته التى يستوى فوقها إيداناً بالشروع فى السفر إلى الحج ، فإذا استوى على بعيره قرأ الآيتين الكریميتين من سورة الزخرف "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" ، وفيهما تنزيه لله و تسبيح له ، فهو الذى سخر لنا الركائب التى نركبها سواء كانت حيواناً - كما كانت فى الزمن الماضى ولم تنزل فى الزمن الحاضر ، أو اختراعاً اخترعه الإنسان قديماً وحديثاً مثل السفن أو البواخر والطائرات والأقمار الصناعية ، فضلاً عن القطارات وأشبابها والسيارات المتنوعة ؛ فلولا التسخير الإلهى لهذه الوسائل الحية أو الآلية لما استطاع الإنسان أن ينتقل بسهولة ويسر وسرعة إلى الأماكن البعيدة . ولذا كان على المسلم أن يتذكر تلك النعمة العظيمة التى أنعم الله بها عليه ، ونُذِّل له هذه الركائب ليصل إلى أماكن الحج أو غيرها . ويجب أن يكون هذا التذكر قائماً على تسبيح الله وحمده وتنزيهه ، والإيمان بالعودة إليه أو الانقلاب إليه بعد انتهاء الحياة الدنيا .

و يعلمنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - كيف ندعوا بعد أن نقرأ للمدعو بالعبودية والتنزيه والقدرة المهيمنة على الكون ..وهو دعاء يتفق مع طبيعة المسلم فى حركته وسكونه ، وعلنه وسره ، فيقول : " اللهم ، إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى " والبر اسم جامع لكل أنواع الخير والمعروف ، والتقوى هى الخوف من الله فى السر والعلن أو هى كما عرفها الإمام على - رضى الله عنه - الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل " .

فالحاج أو المسافر يطلب من ربه أن يمنحه الخير ، ويوفقه إلى التقوى وهو سائر فى طريقه إلى الحج حيث يؤدى الفريضة أو هو مسافر إلى مكان ما ليؤدى عملاً أو يزور أهلاً أو قوماً ، ويعطف على ذلك الطلب الرجاء فى عمل ما

يرضى الله...وتلك آية المسلم الذي يتحرك بالخير والمعروف ويعيش من أجلهما طمعا في عفو الله ورضاه .

و لأن السفر ، حتى لو كان بأسهل الوسائل والطرق ، فيه مشقة وعناء وجهد كبير ، فإن المسافر المسلم ، يطلب من ربه سبحانه الذي سخر له الوسيلة ، أن يهون عليه السفر وما فيه من مشقات ومعاناة ومتاعب " اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده " فتهوين السفر جعله سهلا وميسرا ، واطو عنا بعده ، أى اجعله قريبا ، ولا تجعله بعيدا فكلما بعدت المسافة ازدادت المشقة وتضاعفت المتاعب ، ومن يسر الله سفره يقرب إليه المسافة البعيدة ، فلا يستشعر ثقلها وصعوبتها .. ونحن نعلم أن المشرع الإسلامى أجاز للمسلم المسافر سفرا بعيدا أن يقصر الصلاة ويجمعها ، ويفطر رمضان وفقا لضوابط يعلمها الفقهاء والمتخصصون .

وكما يعترف الحاج أو المسافر فى بداية دعائه بهيمنة الخالق وقدرته على كل شئ ، فهو يدعوه ليكون صاحباً فى السفر يرعى المسافر ، وأن يخلفه فى اهله وأسرتهم ليرعاهم ويتولى أمرهم .. فمن غيره يكون نعم صاحب ، ونعم الخليفة ؟ لا احد .

ثم يدعو الحاج أو المسافر كما دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – اللهم إنى أعوذ بك من وعناء السفر – أى شدته ومشقته ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل ."

و الكآبة و السوء من الأمور التى تزعج الإنسان عموماً ، فكيف بالمسافر الذى يتمنى رؤية ما يبهج ، ويعود فيجد ما يسره فى ماله وأهله ؟ إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا أن نردد هذا الدعاء ونحن نبتدى السفر ، ونقوله ونحن نعود منه ؛ مع زيادة قوله : آيبون أى عائدون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون " ؛ مما يعنى أن المسلم يرتبط بربه دائما فى البدء والمنتهى .



أما الجهاد الأكبر ، فوسيلته أو وسائله مختلفة ، فهي تعتمد على العقل والفكر والعلم والثقافة والإبداع والعمل الدائب المنظم المستمر المتقن القائم على التعاون والتناصح والتفاعل الحي مع الغير..

هذا هو أفضل الأعمال التي أجاب عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - سائله عن أى الأعمال أفضل ؟

أما السؤال الثانى ، فكانت إجابته من الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
" حج مبرور "

والحج المبرور هو الذى لا يرتكب فيه صاحبه معصية أو ذنباً .

إنذاً الحج المبرور من أفضل الأعمال التى يجب أن يسعى إليها المسلم ليرضى ربه وهناك وجه شبه بين الجهاد والحج ، فكلاهما يقتضى جهداً وعباداً ، وكلاهما فيه مشقة وعناء وحرمان .. والذى يصير على الحج ومصاعبه ، مثل المجاهد الذى يصبر على متاعب الحرب وقسوتها ..

بيد أن " الحج المبرور " الذى تحدث عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحج الخالص لوجه الله ، حيث ينصرف المسلم بكليته إلى مولاه لا يشغله شىء عن جلال الموقف العظيم الذى يقفه وسط الحشود الهادرة والزحام الصعب متجرداً من المحيط والمخيطة ، ممنوعاً من التعطر والتأنق ، متفرغاً للصلاة والعبادة ، وقد يعمل بالتجارة ابتغاء من فضل الله ، ولكنه فى كل الأحوال ، لا يستطيع أن يقرب امرأته أو يقص شعره أو أظفاره .. فهو إنذاً كأنه يجاهد أو فى مرتبة الجهاد .

ووصف الحج بالمبرور ، ليخرج منه الحج الآلى أو الشكلى الذى يؤديه صاحبه دون أن يتأثر بمناسك الحج قلبياً ووجدانياً وشعورياً ، فلا يكون متصلاً بحبل الله ولا مرتبطاً بذكر الله .. هذا الحج الآلى يشبه ذلك الحج الذى يسعى

صاحبه إلى مراعاة الناس ، أو الحرص على شراء لقب يناديه الناس به فى بعض البلاد ، ويحق له الجاه والسلطان على أمثاله من عشيرته وقومه .

و الأهم من ذلك كله أن الحج المبرور هو الذى لا يرتكب صاحبه معصية أو ذنباً ، وكيف نتصور مسلماً ذهب إلى الحج يعبد الله و يتطهر من الذنوب ، فيرتكب ذنباً جديدة أو معاصى أخرى تضاف إلى سجله الملىء بالذنوب والخطايا ؟

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول فى حديث متفق عليه .

" من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه "

و الرفث و الفسوق من الأمور المنهى عنها لأنها تخالف الإسلام ، و تدخل تحت دائرة المعاصى التى تفسد الحج وتجعله غير مبرور .. ولذا فإن الحج المبرور هو الذى يعيد صاحبه إلى الطهارة و النقاء و الصفاء مثل الطفل الوليد الذى لم يرتكب إثماً ولا جريمة .. وايضاً فإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة كما يقول حديث نبوى آخر متفق عليه .

لا شك أن الحج ليس مجرد مناسك يؤديها المسلم لتسقط عنه فريضة تعد الركن الخامس من أركان الإسلام ، ولكنه إخبارات و خوف من الله و صبر على البلاء و إقامة الصلاة و إنفاق فى سبيل الله .

و صدق الله إذ يقول :

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ ۗ الْأَنْعَامِ ۚ فَالْهَكْمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ ۗ فَلهٗ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ۖ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقَهُمْ يَنْفِقُونَ " (الحج : ٢٤-٢٥)

\*\*\*\*

## الحج مرة واحدة

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : "يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا" فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو قلت : نعم لوجبت و لما استطعتم " ثم قال : " نرونى ما تركتكم ؛ فإنما أهلك من كان من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم و إذا نهيتكم عن شيء فدعوه " رواه مسلم

يحكى أبو هريرة رضى الله عنه قصة فرض الحج على المسلمين مرة واحدة كما يفهم من سياق الحديث الشريف الذى جاء فى خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم .

كما نتعرف من الحديث الشريف على ما ينبغى أن يكون بين السائل والمسئول فى مقام التشريع والتقنين حتى لا يكون هناك ما يزهق المسلم ويثقل على كاهله .

وفى الخطبة النبوية التى أشار إليها أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم - قال " يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا " . وهذا النداء للمسلمين يؤكد ما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف حول فرضية الحج بوصفه ركنا من أركان الإسلام الخمسة .

فقد قال الله تعالى :

".....وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" (آل عمران: ٩٧)  
وقال تعالى: "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ....." (البقرة: ١٩٦)

و قال تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا لِإِبْرَةِ خَيْرِ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ" (البقرة: ١٩٧)  
و هناك الحديث الشريف المشهور: "بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ."

و هذا يعنى أن الحج ركن من أركان الإسلام ، يؤديه كل قادر عليه ، بما تعنيه القدرة من مال وعافيه و أمن فى الذهاب و الإياب ، و من يتخلف عن أدائه وهو قادر عليه فقد باء بالخسران المدين .

و يكشف لنا الحديث الشريف عن لهفة المسلمين إلى التعرف على دينهم مما يدفع بعضهم إلى كثرة الإلحاح بالسؤال على النبي -- صلى الله عليه وسلم لمعرفة أصول دينهم وهو ما قد يوقعهم فى الخطأ ..

فعندما سمع الناس خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قام رجل ليسأل : أكل عام يا رسول الله ؟

ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سكت ، حتى كرر الرجل سؤاله ثلاث مرات ، فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - " لو قلت نعم لوجئت ولما

استطعتم ' أى إنه لو قال نعم فى كل عام ..لصارت واجبة على المسلمين كل عام . وهو ما يفوق طاقتهم وقدرتهم ولذا يعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين درساً مهماً :

" ذرونى ما تركتكم " ، أى اتركونى دون سؤال ، طالما تركتكم دون إفاضة فى الكلام أو فى الحديث .. حتى لا تكونوا مثل أمم أخرى سبقتم ، هلكوا بسبب أسئلتهم الكثيرة لأنبيائهم ورسولهم ، واختلافهم عليهم .. وقد كان بنو اسرائيل يكثرُونَ من الأسئلة لأنبيائهم و يختلفون عليهم ، وفى سورة البقرة نموذج للإلحاح بالأسئلة على سيدنا موسى عليه السلام فى أمر البقرة المشهور ، وما سبقها من مواقف وممارسات و أقوال ، انتهت بهم إلى قسوة القلب ، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ "

(البقرة: ٧٤)

وهو ما يعنى أن تكليف المسلمين بالحج مرة واحدة ، هو رحمة بهم وتيسير عليهم ، خاصة وأن الحكمة الإلهية تسبق المفاهيم المحدودة للبشر فى كل زمان و مكان . فهذا الصحابي النبى كانت مكة بالنسبة له قريبة أو يمكن الوصول إليها كل عام ، لم يكن يدرى أن المسلمين سيتجاوزون المدينة وما حولها ، بل يتجاوزون الجزيرة العربية إلى آفاق الأرض شرقاً وغرباً ، وأن أداء الفريضة مرة واحدة فى العمر يصير حلم المسلم فى البلاد البعيدة والأطراف المترامية .

\*\*\*\*

## فى حجة الوداع

عن عائشة رضى الله عنها - قالت : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام حجة الوداع . فأهللنا بعمرة . ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :-

" من كان معه هدىً فليهلّ بالحج مع العمرة . ثم لا يجلّ حتى يجلّ منهما جميعاً " قالت: فقدمت مكة و أنا حائض ، لم أطفُ بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، فشكوت ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم : فقال :-  
" انقضى رأسك ، و امتشطى ، و أهلى بالحج ودعى العمرة . "

قالت: ففعلتُ . فلما قضينا الحج أرسلنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم ، فاعتمرتُ فقال : هذه مكان عُمرتك فطاف الذين أهلّوا بالعمرة بالبيت ، وبالصفا والمروة . ثم حلّوا ، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجّهم ؛ و أما الذين كانوا جمعوا الحج والعمرة ، فحلّوا طوافاً واحداً .  
أخرجه البخارى و مسلم وغيرهما .

.....

تروى عائشة - رضى الله عنها - قصة حجة الوداع ، وما يتعلق بها فى هذا الحديث النبوى الشريف ، و تقدم لنا بعض الأحكام التى ترتبط بالحج والعمرة ، من حيث الأفراد أو القزان أو التمتع ، كما تطرح مسألة الظرف الطارىء الذى يعترى المرأة ، و يعرف بالدورة الشهرية أو الحيض ؛ وهى فى طريقها لأداء مناسك الحج أو العمرة أو فى أثنائهما . و أيضاً تشير القصة إلى ميقات الإحرام المكانى للعمرة بالنسبة لمن كان فى مكة و أراد العمرة .

و حجة الوداع هي الحجة التي قام بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته ولحاقه بالرفيق الأعلى ، وتحكى عائشة رضي الله عنها أنها خرجت مع الصحابة في رفقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -- فاهلّوا ، أى بدءوا أو استهلوا بأداء العمرة قبل أداء الحج . وهنا أرسى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تشريعاً مهماً بالنسبة للذاهبين لأداء المناسك ، حيث إن من صحب معه هدى ، أى ذبيحة ، فله أن يقرن الحج بالعمرة و القران غير الإفراد .

فالإفراد هو أداء كل من الحج والعمرة على حدة ، دون ارتباط أحدهما بالآخر . أما القران فأداؤهما معاً بمناسك واحدة أو شعائر واحدة مقابل ذبح الهدى الذي يأخذه المقرن معه أو يشتريه في أثناء تأدية المناسك .

و يروى عن جابر بن عبد الله ؛ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أحرم من ذى الحليفة إحراماً موقوفاً ، و خرج ينتظر القضاء ، فنزل الوحي وهو على الصفا فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كان معه هدى أن يحج ، ومن ليس معه هدى أن يجعله عمرة .

وهناك روايات عديدة لهذه المسألة يدور حولها كلام كثير ، ليس هنا مجاله و يرجع بعض بالنسبة لعائشة رضي الله عنها أنها أهلت بالحج . و أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين للناس . أن الجمع بين الحج والعمرة ممكن . بيد أن العلماء اختلفوا حول الأفضل بالنسبة للإفراد و القران و التمتع فقال المالكية ، إن الإفراد أفضل ، أما الحنفية فقد فضلوا القران . أما الشافعية وغيرهم فقد فضلوا التمتع ... وهو أداء العمرة ثم التحلل منها حتى قبيل الوقوف بعرفة ، فيبدأ الحاج أداء المناسك من جديد بعد الإحرام ، وفي القران و التمتع بم ، أى ذبح هدى في أيام النحر .

و تثير القصة موضوعاً حيويّاً يتعرض كثير من النساء في أثناء الحج وهو مجيء الدورة الشهرية أو ما يعرف في الفقه بالحيض .. وهذا الحادث يعفي

المرأة من الصلاة حتى تطهر بعد انقطاع الدم ، كما يعيها من أداء المناسك إلا بعد الطهارة ؛ وقد قالت عائشة أنها قدمت إلى مكة وهي حائض ، فلم تطف بالبيت ، ولم تسع بين الصفا والمروة ، وأن هذا الأمر كما نفهم من سياق الحديث قد ضايقها مما اضطرها إلى الشكوى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرها بذلك بعد انقطاع الدم و التطهر والاعتسال ، فأمرها بنقض شعرها أى تخليله بأصابعها ، ثم تمشيطه ، ثم البدء فى مناسك الحج من طواف وسعى...ولما انتهت من فعل ذلك ، أرسلها مع شقيقها عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم ، وفيه مسجد "السيدة عائشة" الآن ، ويحرم منه أهل مكة والمقيمون بها عند ما يبدؤون العمرة أو الحج .. فيصحبون ركعتى السنة ، ثم ينطلقون إلى الكعبة لأداء المناسك .

و تشير السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن التنعيم " هو مكان العمرة كما علمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما الذين نواوا العمرة وطافوا بالبيت وبالصفا والمروة ثم حلوا ، فقد طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم .. وهؤلاء هم المتمتعون أو الذين أفردوا .. أما الذين قرنوا الحج بالعمرة ، فإنما طافوا طوافاً واحداً .

و يبقى أن هذه القصة وقد جاءت من خلال حجة الوداع ، التى اكتمل فيها الدين ".....الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...." ؛ (المائدة: ٣)

قد رسمت معالم الركن الخامس من أركان الإسلام ، وكيفية النية و أداء الحج والعمرة ، إفراداً أو قراناً أو تمتعاً .. ووضحت كيف تتصرف المرأة حين يأتيها العارض الشهري .. وكل ذلك فى إطار التيسير الإلهي على المسلمين .

\*\*\*\*

## التلبية وصفتها

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهل.

فقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وكان عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يقول هذه تلبية رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

قال نافع : كان عبد الله - رضى الله عنه - يزيد مع هذا لبيك لبيك ، وسعديك والخير بيدك لبيك ، والرغبا إليك والعمل .

و أخبر بعضهم عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما - قال : تلقفت التلبية من فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر بمثل حديثهم .

(أخرجه مسلم)

.....

فى هذا الحديث الشريف نتعرف على قصة " التلبية" التى تعارف عليها الناس طوال أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهم يؤدون فريضة الحج أو واجب العمرة .. فكل حاج أو معتمر يبدأ حجة أو عمرته بهذه التلبية تعبيراً عن استجابته لأوامر ربه وطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

و عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يحكى لنا قصة التلبية كما رآها وسمعها من فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيخبرنا أنه - صلى الله عليه وسلم كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهل .. أى إنه عند بداية إحرامه من الميقات المكانى للحج والعمرة بالنسبة لأهل المدينة ، وهو " ذى الخليفة " وركب راحلته ، أى ناقته التى تحمله من المدينة إلى مكة لأداء الحج

والعمرة . أهلّ أى بدأ ، والاستهلال هو البدء فى كل شىء ، واستهلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبدأ بالتلبية قائلاً :

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد  
والنعمة لك و الملك لا شريك لك .

و التلبية معناها الاستجابة أو الإجابة ، ولذا فعندما يلبى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : لبيك اللهم لبيك .. أى الاستجابة لك يا رب بعد استجابة ، وطاعة بعد طاعة والتزاماً بعد التزام .. كأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا : أن الإسلام هو الاستجابة والطاعة والالتزام ، فليس لأحد أن يخالف عن أمر ربّه ، طالما قبل بالدين الحنيف ، و آمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقبل بالأوامر والنواهي التى وردت فى الكتاب والسنة ، وهو ما يعنى الاستسلام الكامل والخضوع التام لمنهج الله دون تبديل أو تحريف أو تاويل خبيث؛ كما يحل لبعض المنافقين ممن طمس الله على قلوبهم وأثروا الدنيا على الآخرة ، وتصوروا أن الإسلام يشبه النظريات الوضعية أى التى يضعها البشر ، فيفسرونها على هواهم ، ويشرحونها بما يتفق وأغراضهم الدنيوية ولعل هؤلاء هم الذين قصدتهم الآية الكريمة فى قوله تعالى :

".....أَفْتَوْمُنُونَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ فَكْفُرُوا وَمَا جَزَاءُ  
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ  
يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (البقرة : ٨٥)

و تحمل التلبية معنيين مهمين ، يشكلان العمود الفقري للإسلام ، وهما : التوحيد ، والإقرار بالعبودية لله .. فالحاج أو المعتمر حين يعلن طاعته لله ، فإنه يقرنها بالتوحيد : لبيك لا شريك لك " والتوحيد هو نفى كل ما عدا الله ، من مخلوقاته أو كائناته التى يتصور بعض الناس أنها يمكن أن تنفعهم أو تضرهم ،

فالذين عبدوا الحكام و الأصنام أو خضعوا للأقوياء أو ذوى الجاه والأموال ؛  
يشركون بالله الذى يملك كل شىء ، و يخضع له كل الخلق و الكائنات وما على  
الأرض وما تحتها ، و السماء وما فوقها ... إنه الملك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ،  
الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحداً .

و إذا كان التوحيد هو المعنى الأول للتلبية ، فالعبودية هى المعنى الثانى ،  
الذى يقر فيه المسلم بعبوديته الكاملة لله و نفهم ذلك من قول الحاج و المعتمر إن  
الحمد و النعمة لك و الملك " فهو المحمود على عطائه ، وهو المشكور على نعمائه التى  
يهبها لعباده جميعاً يطعمهم و يسقيهم و يمنحهم الصحة و العافية ، و العمل و الأمل ،  
وهو قبل ذلك و بعده صاحب الملك الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ..

لذا كانت التلبية ليست مجرد دعاء أو هتاف ينطق به الحاج أو المعتمر ،  
ولكنها إعلان حى و مباشر عن الطاعة و الالتزام لما لك الملك و صاحب الكون ، بل إن  
الزيارة التى رآها ابن عمر ، فى تلبيته : لبيك لبيك ، و سعديك ، و الخير بيدك  
لبيك ، و الرغباء إليك و العمل ، هذه الزيارة تؤكد لما سبق من معنى التلبية ، فهو  
يكبر الاستجابة و الطاعة ، ثم يطلب منه المساعدة بعد المساعدة بقوله " وسعديك "  
كأنه يقول يا رب مساعدة منك بعد مساعدة كما يسند إليه الخير ، و الرغباء و العمل .  
و الرغباء أو الرغبى : تعنى الطلب و المسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو  
المقصود بالعمل الحقيقى بالعبادة .

و المسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو المقصود بالعمل الحقيقى  
بالعبادة . لقد تلقف ابن عمر التلبية من فى أو فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم  
ونقلها إلى الناس و ساءوا عليها حتى يومنا هذا .. فكانت تعبيراً عن إيمان  
و خضوعاً لخالق الأرض و السماء .

\*\*\*\*

## الحج .. و التجارة

عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال :  
كانت عكاظ و مَجَنَّةُ و ذوالمجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجربوا

فى المواسم ، فنزلت

" لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ..... " (البقرة ١٩٨)

رواه البخارى

هذا الحديث الشريف يحكى أمراً يقص التشريخ الإسلامى . وهو التجارة

فى موسم أو مواسم الحج .

وكانت العرب فى الجاهلية تتخذ من مواسم الحج على الطريقة التى  
كانت سائدة آنئذ ، فرصة لإقامة الأسواق التجارية التى يتكسبون منها ، فضلاً عن  
إقامة المناظرات الأدبية و الشعرية بين الأدباء و الشعراء مع كبار النقاد بمفهوم  
ذلك الزمان ..

كانت عكاظ من أشهر أسواق العرب فى الجاهلية و أعظمها ، وكان  
موقعها وراء مكان يقال له " قرن المنازل " بمرحلة أى عدة أميال ، و يتبع مدينة  
الطائف الشهيرة على طريق اليمن . و كان سوقها يعقد أو يقام فى شهر ذى القعدة  
و يستمر لمدة أسبوعين تقريباً ...

و بعد الانتهاء من سوق عكاظ ، يتركونه إلى مكان آخر فى مكة يقال  
سوق مَجَنَّةُ فينصبون السوق أسبوعين آخرين .. أى إن سوق عكاظ تستغرق نصف  
الشهر الأول من ذى القعدة ، و ذى المجنة تستغرق نصفها الأخر .

و بعدئذ ينتقلون إلى مكان آخر قريب من سوق مجنة يقال له " ذوالمجاز "   
فيقيمون فيه السوق حتى يوم التروية ، قبل يوم عرفة بيوم واحد ، يوافق الثامن من

ذى الحجة ، حيث ينتهى السوق ، ويذهبون بعده إلى منى لإكمال مناسك الحج وفقاً لمفهومهم الجاهلى .

قضية الأجر والكسب فى مواسم الحج ، إذا كانت عادة جاهلية قديمة مورثة وكانت مصدر رزق لكثيرين ينتظرونها من العام إلى العام . فلما جاء الإسلام أحسن المسلمون بشىء من الحرج ، وشعروا أن التجارة لا تليق مع أداء المناسك على أساس أن الحج عبادة ، والعبادة لا تتفق مع التجارة .. ولكن الله الرؤوف الرحيم بعباده لم يشأ أن يحرمهم من الرزق الذى ينتظرونه كل عام ، فنزلت الآية الكريمة تبيح لهم أن يتجددوا و يكسبوا وهم يؤدون المناسك ويقبضون الشعائر .

قال تعالى : "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ "

(البقرة: ١٩٨)

و نجد فى هذه الآية الكريمة ربطاً بين العمل والعبادة ، أوبين التجارة وذكر الله ، وهذا جانب من التيسير الإلهى على عباده ، ليخدم بعضهم بعضاً ، ولنا أن نتصور مثلاً أن كل الحجاج جاءوا لأداء المناسك وحدها ، ووقفوا حياتهم فى أثناء الحج على العبادة وحدها ، فمن ذا الذى يقدم لهم الطعام والشراب ، ومنذا الذى يقودهم فى المواصلات ، ويقدم لهم الخدمات الأخرى التى يحتاجونها فى العلاج والدواء والاتصالات وغيرها ؟

لابد إذاً أن تكون هناك طائفة تقدم هذه الخدمات ، ولا بأس عليها أن تؤدى مناسك الحج ، وتستفيد بالوفاء بهذه الفريضة أو هذا الركن الخامس الذى يجب على المسلم أن يؤديه ليكتمل إسلامه .

ولاشك أن الحج ليس موسم تجارة أساساً بل موسم عبادة . ولكن لتجارة تأتي هامشاً إلى جانب العبادة ، والمشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هي الهدف وهي الغاية حيث يضيعون العبادة ، والمشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هي الهدف وهي الغاية حيث يضيعون ثوابهم . لأن انشغالهم في هذه اللحظة ليس بالله . ولكن بالأموال ، وشتان بين هذا الانشغال أو ذاك .

إن الحج موسم من المواسم المباركة التي تعبر عن وحدة الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاريها ، وتسقط فيما بينها حواجز العرق واللون والعنصر والغنى والفقير والطائفة والمذهب ، وتتلاقى جميعاً حول هدف واحد هو التجرد لطاعة الله سبحانه ، والامتثال لأوامر ، وبالإضافة إلى ذلك تتشاور فيما يعينها ويهّمها ، وتسعى إلى معالجة مشكلاتها وقضاياها بما يخدم الإسلام والمسلمين .

قال تعالى : "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ" (الحج . ٢٧-٢٨)

و الآية الكريمة نتحدث عن " المنافع " . بصيغة التنكير ، أى مطلق المنافع فليست التجارة وحدها هي المنافع . ولكن هناك منافع أكثر حين يلتقى المسلم بالمسلم فيتعارفان ، ويعلم أحدهما ما يعانیه الآخر ، وأوجه المساعدة التي يمكن أن تقدم له .

وفي كل الأحوال ، يأتي الفضل الإلهي من خلال التيسير على المسلمين في التجارة وغيرها . "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ..." (البقرة : ١٩٨) وهو الفضل الذي لا تحده حدود ، ولا يتوقف .

\*\*\*\*

## دعاء العودة من الحج و الجهاد و السفر

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال :  
كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج  
أو العمرة إذا أوفى على ثنية أو فدقد كبر ثلاثاً ، ثم قال :  
" لا إله إلا الله وحده . لا شريك له . له الملك و له الحمد وهو على كل  
شئ قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون . لربنا حامدون . صدق وعده .  
ونصر عبده . و هزم الأحزاب وحده " أخرجه مسلم

.....  
.....  
.....  
إذا كان المسلم وهو يتهبها للسفر إلى الحج أو إلى مكان آخر ، يدعو دعاء السفر الذى  
سدقت الإشارة إليه فى مكان آخر ، ويبدأ بالآيتين الكريهيتين من سورة الزخرف  
: "سُبْحٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا  
لَمُنْقَلِبُونَ " (الزخرف: ١٣-١٤)

اعترافاً بقدرته الله و حمداً على نعمائه . فإنه بعد عودته من الحج أو الجهاد  
أو السفر عموماً يدعو الدعاء ذاته الذى قاله فى بداية سفره ، و يزيد عليه . أو يقول ما قاله  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى حديث ابن عمر الذى بين أيدينا ، وهو يحمل المضمون  
نفسه أو قريباً منه . ولكنه يركز على فكرة أساسية تربطه بربه فى كل الأحوال .  
و يصف عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - عودة الرسول - صلى الله عليه  
وسلم ، أو قفوله من الجيوش ، أى رجوعه مع الجيوش بعد الحرب ، أو السرايا أو الحج أو  
العمرة . فيقول إنه إذا أوفى أى اقترب أو دخل على ثنية أى منعطف ، أو فدقد أى موضع  
من الأرض فيه غلظة و ارتفاع ، كبر ثلاثاً ، أى قال : الله أكبر ثلاث مرات ، و التكبير هنا له  
دلالة على الطاعة و الخضوع لله مالك الملك ، فهو الله الأكبر و الأحق بالذكر فى المواضع  
التي تبدو مستعصية أو موحشة أو مخيفة ، أو تمثل بالنسبة للإنسان حالة تدهشه أو تحيره..  
فالتكبير هنا إعلان عن إسلام القلب لله ، و تعظيم له ، و ترك الأمر بين يديه فيما نعلم أو لا  
نعلم من أمر الظواهر الطبيعية أو غيرها .

إن السفر فى حد ذاته للجهاد أو الحج أو العمرة أو العمل أو صلة نوى  
الأرحام أو حتى السياحة بالنسبة للمسلم هو حركة فى اتجاه خدمة الدين و طاعة الله و  
إقامة الشريعة و نصرته الإسلام .. و لبعض العلماء رأى لطيف فى هذا السياق، يرى أن

التكبير فى الأماكن العالیه يشبه الأذان فوق المساجد ، والأذان كما نعلم هو تعبير عملى عن تعظيم الحق سبحانه ، وتسبيحه وحمده تعالى . واعتراف بقدرته وهيمنته . وتمايم عمته على المسلمين بالنصر والعزة ..

و بعد التكبير ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤكد على المعانى السابقة التى يحملها الأذان ، فهو يعلن التوحيد أو وحدانية الله الذى لا شريك له " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ، وإعلان الوحدانية ليس مجرد تحصيل حاصل خاصة فى الأزمنة التى يخضع فيها بعض الناس لبعض من أجل المال أو الجاه أو السلطان أو المنفعة الدنيوية الفانية - ولكنه يمثل تذكيراً لهؤلاء وغيرهم بأن الله وحده هو صاحب الحول والطول ، وهو المهيمن القاسم ، وهو الذى يملك الضر والنفع ، فينبه الغافلين ، ويوقظ الخاملين ، ويحيى النفوس الراكدة . " لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له " حماية للقلب والعقل من الاستسلام لمن ظنوا أنفسهم - توهماً وخطأ - أنهم يملكون رقاب الناس أو يستطيعون التحكم فى مصائرهم .

ولعل ما تلا ذلك من الدعاء فى الحديث الشريف يؤكد ما سبقت الإشارة فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : " له الملك و له الحمد وهو على كل شىء قدير " فالوحدانية تقتضى أن يملك الحق سبحانه الكون وما فيه من نعم وآلاء وهو ما يجعله يستحق الحمد على ما أعطى للخلق ويسر لهم من وسائل الحياة والعيش فهو على كل شىء قدير ، ولا أحد يقدر على ما يقدر ، ولا يملك ما يملك .

وهنا يذكرنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالواقع ، وهو العودة من الرحلة بقوله : " آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون " وآيبون أى عائدون ، تائبون من كل ذنب وإثم ، طالبون للغفران والعفو ، ساجدون لله فى صلاتنا وعبادتنا .. ثم لربنا حامدون .. والحمد هو اعتراف بالنعم الإلهية وشكر للمنع الذى أنعم بها ، وهو الله جل جلاله .

وفى ختام الدعاء إشارة إلى بعض ملامح نعمه وأفضاله على عباده . خاصة المسلمين حين يقول - صلى الله عليه وسلم - " صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده " مذكراً بما جرى فى غزوة الأحزاب حين هزم الكفار بإرسال الريح والجنود غير المنظورين عليهم فارتدوا مهزومين ، وصدق الله وعده بنصر عبده محمد ، ونشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ومن بعدها العالم كله ..

فالحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . وهو وعد قائم فى كل زمان ومكان .. طالما كنا آيبيين عابدين ساجدين عاملين بأوامره طائعين له .

## اتقاء الشبهات

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول :

إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب "

متفق عليه وروى بالفاظ متقاربة

يقودنا هذا الحديث الشريف إلى ضرورة التحرى والتثبت فى مسألة الحلال والحرام ، وهى مسألة صرنا أحوج ما نكون إليها فى عصرنا الذى يحفل بكثير من الأمور التى يختلط فيها الحلال والحرام ، والصواب والخطأ ، ومع قلة الدرس الفقهي وسطحية تعليم الشريعة ، يتوجب على المسلمين أن يفقهوا دينهم ، ويدرسوا شريعتهم بما لا يعطى مجالاً للخلط أو سوء الفهم .

ورواية النعمان بن بشير رضى الله عنهما تشير إلى ما سمعه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن وضوح الحلال والحرام .. الحلال بيّن ، أى واضح وظاهر .

و الحرام بيّن ، أى واضح وظاهر .. فإذا قلنا مثلاً إن التجارة الأمانة حلال فهذا أمر واضح لا يحتاج إلى بيان ، لأن التاجر الأمين لا يغش ولا يكذب ولا يدأس .

و العكس صحيح إذا قلنا إن الغش فى التجارة حرام ، فهو أمر معروف يدرکه الناس حين يرون السلعة غير التى اتفقوا عليها أو طلبوها من التاجر الغشاش ..

ومعنى ذلك أن الأمور الحلال التى أوضح الإسلام إباحتها معروفة ويجمع عليها الناس ، فضلاً عن علماء الأمة الثقات . أما الأمور الحرام فتم الإجماع عليها أيضاً مثل السرقة والزنا واللواط والغش والتدليس والشهادة الزور وغيرها . كل هذا يعرفه الناس ولا يحتاج إلى بيان ، بعد أن اكتمل الإسلام أو اكتمل الدين فى حجة الوداع .

"...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ....."<sup>(٢٠)</sup> (المائدة: ٢٠)

لكن هناك بعض الأمور المشتبهة التى يجد المرء نفسه حائراً أمامها لا يعرف أهى حلال أم حرام ؟ و يجد نفسه فى مأزق لا يعرف طريق الخلاص منه وخاصة فى الأمور التى استجدت بعد انتصار الإسلام و اكتماله ، و تطور الزمان و تعدد المكان ؛ فقد نشأت نتيجة لتطور الحياة و الزمان و المجتمعات و العلاقات ، و هذه الأمور يسهل الاحتكام فيها إلى أهل العلم و استفتائهم ، و معرفة الصواب من الخطأ ، و الحلال من الحرام ، لأنهم يملكون القدرة على القياس و معرفة أصول الحكم الفقهى و الشرعى . و اجتهادهم فى هذا السياق محمود ، و لهم الأجر مضاعفاً إن أصابوا ، و مفرداً إن لم يصيبوا .

بيد أن هناك أموراً غير ذلك تشبه على كثير من الناس ، و لا تتعلق بتطور و لا اكتشاف و لا اجتهاد .. إنها أمور ترتبط بالعلاقات و السلوكيات بين الناس ، و الدخول إليها يثير الشبهات ، و يجعل من يدخل فيها محل ريبه و شك مما يترتب

عليه ضرر كبير أو أذى عظيم ، مع أن النوايا قد تكون حسنة .. ولكن الناس لهم الظاهر والله يتولى السرائر..

فموضع الشبهة الذي يثير الريبة والشك ، يجب أن يكون المسلم على حذر منه ويتعد عنه ، حتى لا يسقط فيه .. ويقدم لنا الحديث الشريف مثلاً حياً لموضع الشبهة التي ينبغى للمسلم أن يحذرهما ويتعد عنها .

و يخلص الحديث إلى أن لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه ، وهو ما ينبغى الابتعاد عن هذه المحارم والحذر من الوقوع فيها بعدم الاقتراب منها ، ويؤكد الحديث على أهمية إخلاص القلب لله في مثل هذه الأمور . فالقلب مضفة ، أى قطعة لحم إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسدت الجسد كله ، وهو ما يعنى أن على المسلم أن يتقى الشبهات أو ما يثير الريبة والشك فى أى مجال من مجالات القول والسلوك حتى لا تكون فتنة .

ومن اتقى الشبهات وابتعد عنها فقد استبرأ لدينه وعرضه ، أى صلب البراءة أو صار بريئاً فى دينه وعرضه ، وهو ما ينبغى أن يتنبه له كل مسلم وخاصة فى أيامنا التى تكثرت فيها المشكلات الاجتماعية بسبب الاقتراب من مواقع الشبهات أو الوقوع فيها ..

ولدينا مثل قديم يقول : احذر تسلم .

و صدق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم حين قال " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " والدين والعرض أغلى ما يحرص عليه المسلم فى كل زمان ومكان .

\*\*\*\*

## البر والإثم

عن وابصةَ بن مَعْبَدٍ ، رضى الله عنه ، قال : أتيت رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - فقال : " جئت تسأل عن البر؟ قلت : نعم .  
فقال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ،  
والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وافتوك "  
حديث حسن رواه أحمد والدارمي

يقدم لنا الحديث النبوي الشريف قصة قصيرة للغاية حول البر والإثم ،  
بطلها وابصة ابن معبد رضى الله عنه الذى قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم -  
يسأله عن البر والإثم ليستقيم إيمانه ويصلح إسلامه .

وقد جاء وابصة بن معبد رضى الله عنه إلى رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - فى عشرة رهط من قومه بنى أسد بن خزيمه فى السنة التاسعة  
للهجرة ، فأسلموا ورجع إلى بلاده ، ثم نزل الجزيرة ، وسكن الرقة ودمشق ، ومات  
بالرقة ودفن عند منارة مسجد الجامع ، وقد روى عن النبي - صلى الله عليه  
وسلم - أحد عشر حديثاً ، وكان كثير البكاء لا يملك دمعته ، وله عقب بالرقة أى  
أفراد من نسله ينتسبون إليه ..

و يلاحظ هنا أنه حين جاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يسأل  
ولكنه - صلى الله عليه وسلم - عرف أنه جاء سائلاً ، وأنه يسأل عن البر ، وهو ما  
أكده وابصة بقوله : نعم .

و كانت إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قصة قصيرة  
وشافية ومقنعة :

" استفت قلبك " أى اطلب الفتوى من قلبك ، من داخلك ، من ضميرك  
الحى ثم شرح معنى البر والمقصود به :

البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمان إليه القلب ، والقلب المقصود فى  
هذا الحديث ، هو القلب الصافى النقى الذى لم يتسلل إليه الهوى ، ولم تدنسه  
الذنوب والآثام .. هو القلب الذى يحتفظ بفطرته الإنسانية التى لم تلوثها الأطماع  
والانحرافات .

إنها فطرة اللّٰه التى فطر الناس عليها ، وهى التى فلتقى مع الإسلام دون  
وساطة لأنها تعبير حقيقى عن طبيعته ومذهبه ومفاهيمه .

و اكرسول - صلى الله عليه وسلم - حين يقول : " البر ما اطمأنت  
إليه النفس واطمان إليه القلب " فهو يعنى ما توافق مع الفطرة الإنسانية الصافية  
النقية ويستشعره المسلم فى سلوكه وقوله ، ويرى أنه الصواب بعينه ، ولا يستشعر  
فيه شيئاً من الشك أو الندم أو الإحساس بالخطأ أو الإثم ..

وعندما يستشعر المسلم أن هنالك شيئاً يقلقه أو يثير اضطرابه الوجدانى  
أو يبعث على القلق ، فإنه يتوجه من فوره إلى سؤال أهل الذكر ليطمئن ويستريح  
إلى القول الفصل الذى ينطق به العلماء والفقهاء ..

بل إن بعض الناس يشعر أن الأمر يقتضى ترك مسألة ما أو الابتعاد  
عنها مع أن العلماء أفتوه بحلّها وإباحتها ، لأنه بداخله يرى فيها حالة غير طبيعية  
أو غير طيبة .. وهذا معنى " وإن أفكك الناس وأفتوك " .

فالفتوى ليست نهاية المطاف مع أصحاب الضمائر الحية والأفئدة  
اليقظة والقلوب المتصلة بالحق سبحانه صلة إيمان وإخلاص ويقين .

إن تعبير الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الإثم بقوله :  
" الإثم ما حاك في النفس ، و تردّد في الصدر و إن أفتاك الناس  
وأفتوك " يؤكد على الضمير الإسلامى فى حسم الأمور الغامضة أو المختلطة أو التى  
لم يدر صاحبها بحلّها و حرمتها ..

الإثم ما حاك في النفس ، أى ما لم ترض عنه النفس البشرية و تشعر أنه  
ليس حلالاً و ليس طيباً ، و تردّد فى الصدر ، أى يجد المسلم نفسه مؤزّعاً بين الرضا  
و القبول من ناحية و عدم الرضا و عدم القبول من ناحية أخرى .

إن البرّ بمعناه الشامل لكل أنواع الخير و المعروف ترتاح إليه النفس  
و ينجذب إليه القلب دون و بساطة و دون فتوى . و ما أحوجنا إلى النفس الصافية  
و القلب الطاهر لإقامة المجتمع المتضامن المتعاون على الخير و المعروف .

و المسلم فى بحثه عن الحق و الحقيقة لا يرضى أن يفارق مواضع  
الشبهات أو المسائل الشائكة التى توقعه فى دائرة الإثم و المعصية .. و قد يستهين  
البعض من الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم ، و يقيسون الحياة بمقاييس مادّية تقوم  
على الريح المادى و الكسب العينى ، و هؤلاء من الذين ظلموا أنفسهم ، و ظلموا  
دينهم و ظلموا أمّتهم و مجتمعهم لأنهم تناسوا أن الله سبحانه يرقب و يرى ،  
و يحاسب و يجازى ، و أن هناك يوماً سيلتقى فيه البشر جميعاً . أعمالهم هى جواز  
سفرهم إلى الجنة أو النار .

نسأل الله سبحانه أن يطهر قلوبنا لنتلقى ربّها و هى صافية نقية ،  
ابتعدت عن الحرام ، و كل ما فيه شبهة حرام ، و اقتربت من الحلال ، و عملت به  
وله ، و الله ولى التوفيق .

\*\*\*\*

## أهل الصفة - ١

عن عن طلحة البصرى - رضى الله عنه - قال : كان الرجل منا إذا قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه ، فإن لم يكن بها عريف نزل الأُصْفَة .

فقدمت المدينة ولم يكن لى بها عريف . فنزلت الصفة ، وكان يجرى علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل يوم مُدًّا من تمر ، ويكسونا الخنف ، فصرى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بعض صلوات النهار ، فلما انصرف ناداه أهل الصفة يمينا وشمالاً : يا رسول الله ، أحرق بطوننا التمر ، وتخزمت علينا الخنف !!

فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى متبره ، فصعده فحمد الله وأثنى عليه فذكر شدة ما لقي من قومه ، حتى قال :

" فلقد أتى على و على صاحبي بضع عشرة يوماً ، ومالى و له طعاماً إلا البربر . فقدمنا على إخواننا هؤلاء من الأنصار ، و عظم طعامهم التمر فواسونا فيه . فوالله لو أجد لكم الخبز و اللحم لأشبعتم منه . و لكن عسى أن تدركوا زماناً حتى يُغدى على أحدكم يجفنة . و يراح عليه بأخرى .. "

حديث صحيح أخرجه أحمد وآخرون

نحن فى هذه القصة النبوية التى يرويها الحديث الشريف ، بصدد قضية مهمة ، تعنى المسلمين فى كل زمان و مكان ، و تخاطب الوجدان الإسلامى ، فبهتت أمام احتياجات إخوانه من أهل الإسلام و غيرهم ، للإحسان إليهم و مساعدتهم ومد يد العون إلى المحتاجين والذين لا يجدون ما ينفقون ، كما تقودنا هذه القصة إلى

المقارنة بين زمن التضامن الإنساني والتكافل الاجتماعى فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وزمن آخر ينسى فيه المسلمون تعاليم الإسلام وقيمه ، فيتقاتلون ويتناحرون ، وتضيع هيبتهم ويقعون فريسة سهلة لأعدائهم وخصومهم .

إن طلحة البصرى - رضى الله عنه - يكشف لنا عن نمط من السلوك الاجتماعى على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - يحقق للغرباء عن المدينة ما يحتاجونه من سكن وإقامة بوصفهم ضيوفاً جاء للعلم والتعرف على الإسلام من منبعه الأسمى وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى يقيم فى المدينة المنورة . وإذا تأملنا اسم راوى الحديث " طلحة البصرى " سنجدُه منسوباً إلى " البصرة " وهى مدينة بعيدة عن المدينة تقع فى العراق ، والرجل - أى طلحة البصرى - قد جاء إلى المدينة ، ولم يكن له بها " عريف " أى مسئول عن أهل البصرة ونواحيها يستضيفهم ويقوم على أمورهم ومعاشهم حتى تنتهى فترة إقامتهم وينجزوا مهمتهم ، فذهب إلى ركن مظلل فى المسجد النبوى أطلق عليه ركن أهل الصفة حيث يجتمع المهاجرون الفقراء ، والبسطاء الذين لا يملكون سكناً ولا طعاماً .

وكان المسلمون يطلقون عليهم ضيوف الإسلام أو أضياف الإسلام ، ويخصص لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يتاح له من طعام وكساء ..

ولا شك أن هذا المنهج يمثل صورة للتكافل الاجتماعى - وضع أساسها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسار عليه المسلمون من بعده ، وطبقوه بصور مختلفة على مستوى الوحدات السياسية الكبرى أو القرى والتجمعات السكنية الصغيرة فى شتى أرجاء الأمة الإسلامية .

وكان الأزهر مثلاً إلى عهد قريب يخصص " أروقة " فى مسجده الكبير لكل القادمين من شتى المناطق الإسلامية ، ويصرف لهم " الجراية " أو الطعام حيث يظلون مقيمين إلى أن تنتهى مدة تحصيائهم للعلم على شيوخ

الأزهر، ويرجعون إلى بلادهم لينهضوا بمهامهم فى مجال التعليم أو الوعظ أو الخطابة أو الإمامة .

و هناك من يعد " الصفة " بداية لما يعرف بالصوفية . حيث تعنى الزهد فى زخرف الدنيا ومتاعها ، والعيش عيشة التقشف والكفاف ، بعيداً عن صراع الحياة وطمغيانها ، والتفرغ للعبادة والطاعة .

وأيا كان الأمر ، فإن دلالة البصرى لم يكن له " عريف " بالمدينة ، ونزل على أهل " الصفة " ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخصص لهم كل يوم مداً من تمر يتعيشون به أو يكون طعامهم اليومى ، وبالإضافة إلى ذلك يجعل لهم كساءً من الخنف وهو نوع ردىء بل أردأ أنواع الكتان الغليظ الخشن .

وكما نرى فالطعام والكساء كانا متواضعين للغاية ، ويحفظان الحياة بصعوبة وهو ما دعا أهل الصفة إلى الشكوى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يعانونه من سوء الطعام والكساء جميعاً . وقد اغتموا فرصة انتهائه - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة ذات يوم ، فقالوا له : " يا رسول الله أحرق بطوننا التمر . و تحرقنا علينا الخنف " أى إنهم من أكل طعام واحد فقد احترقت بطونهم ، و تمزقت ملابسهم الكتانية الرديئة من طول استعمالها . وكان رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن صعد المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، وذكر لهم من أجل أن يواسيهم ويصبرهم شديد ما لقيه على يد قومه فى مكة قبل الهجرة ، وكان إيذاءً وحصاراً و ملاحقة .. وهو الأمر الذى استمر فى أثناء هجرته وشاركه المعاناة صاحبه أبو بكر رضى الله عنه .

\*\*\*\*

## أهل الصفة - ٢

شكا أهل الصفة من سوء الطعام و تخرق الثياب ، فصعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - المنبر وأخذ يواسيهم ويتمنى لو كان لديه خبز ولحم ليشبعهم منه. ورجا لهم زمناً أفضل تقدم لهم فيه جفنة طعام بعد أخرى .

" فقالوا : يا رسول الله ، أنحن اليوم خير ، أو ذلك اليوم ؟

قال : " لا ، بل أنتم اليوم خير ، أنتم اليوم متحابون ، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض " .

لا ريب أن موقف أهل الصفة مما يعانونه من سوء الطعام أو تخرق الثياب هو أمر طبيعى تفرضه الطبيعة الإنسانية التى لا تصبر على طعام واحد ، ولا ترضى بلون واحد من المأكولات ، وهؤلاء الفقراء المساكين الذين يعيشون على التمر ، ويرتدون أسوأ أنواع القماش وهو الخنف أو الكتان الرديء جداً ، مرّت بهم أيام طويلة ، ولم تتغير حالهم فكانت شكواهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليهم يجدون عنده حلاً يغيّر من هذا الواقع البائس .

و تقبل الرسول -- صلى الله عليه وسلم -- شكواهم بروح طيبة حانية ، لم يتأفف ولم يغضب ولم يقل لهم : أنتم ترون الواقع و تعرفون ما فيه فلا تتكلموا ولا تثوروا .. ولكنه صلى الله عليه وسلم - أدرك بحسه الإنسانى وشعوره النبوى ، أن أهل الصفة مظلومون ويجب أن يقف إلى جانبهم ويصبرهم ويواسيهم .. وهو ما جعله يميل إلى المنبر ، أى يتجه إليه ، ثم يصعد ، ويبدأ فى خطبته بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهل له .

كان من الطبيعى أن يذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما عاناه والمسلمون الأوائل من شدة ومعاناة على يد مشركى مكة الذين طاردوهم

وحاصروهم وعذبوهم ، وقد كان هنالك حصار مشهور في شِعب أبي طالب ، حيث لم يجد المسلمون الطعام فاضطروا إلى أكل العشب وأوراق الشجر كي تستمر الحياة.. إلى أن ذن الله بالفرج ، وتم فك الحصار..

و يشير الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى حدث قريب يعرفه أهل الصفة وهو هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع صاحبه أبي بكر من مكة إلى المدينة ، وقضى في رحلة الهجرة أياماً صعبة زادت على العشرة أيام ، لم يأكل فيها وصاحبه طعاماً إلا البربر ، وهو تمر الأراك ، أي إن طعام النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه كان يشبه طعام أهل الصفة الذي يشكون منه ، ويقولون إنه أحرق بطونهم .

لقد صبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه على هذا الطعام ، حتى وصلا إلى المدينة ، وجاء الأنصار لمواساتهم ، فقدموا لهما التمر ، وهو غالب طعامهم الذي يفتاتون عليه . وكان لا مفر من القبول بهذا الطعام ، لأنه الواقع المتاح ، مع الصبر الجميل حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وما ذكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - لترضية أهل الصفة ، واستعرض فيه ملاقاة من قومه ، وما عاناه في الهجرة إلى المدينة ، كان ضرورة ليعلن لهم عن أمنيته بل رجائه أن يدركوا زمانا ، ويلحقوا عصراً ، أفضل وأسعد . إنه يقسم بالله لو أنه يملك الخبز واللحم لأشبعهم منه ، أي يقدمه لهم ليأكلوا حتى تتلى بطونهم ويكفوا عن تناول الطعام ، ولكنه يرجو أن يأتي الزمان الذي يتحقق لهم فيه ذلك ، فتقدم لهم الجفنة بعد الجفنة ، والجفنة هي الإناء الكبير الواسع الذي يوضع فيه الثريد وفوقه اللحم . وهو الطعام المفضل عند أهل الجزيرة العربية .

وبلا شك ، فقد نزل كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أهل  
الصفة برداً وسلاماً ، وأراح نفوسهم وأفندتهم ، وهبأهم فرصة التساؤل عن الزمن  
الحاضر الذى يعيشونه ، و الزمن الذى سيأتى من بعدهم :

" يا رسول الله ، أئمن اليوم خير . أو ذلك اليوم ؟ "  
يقصدون المستقبل !

إنهم من شدة المعاناة يتطلعون إلى يوم خير من يوم المعاناة الذين يعيشون  
فيه .. وكانت إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالنفى لسبب واضح يذكره "   
لا ، بل أنتم اليوم خير ، أنتم اليوم متحابون ، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب  
بعض ! " .

خيرية اليوم الذى يعيشونه - مع الفقر والجوع - ترجع إلى الحب والتراحم  
والمودة التى تسوء بينهم ، وتحكم علاقاتهم وسلوكهم ، وتجعلهم يتكاملون  
ويتراحمون .

أما اليوم الآخر ، الذى سيأتى فى المستقبل بعد يومهم هذا ، فسببه  
الأنانية والأثرة وحب المادة وانتفاء التكافل والتراحم ، وهو ما يؤدي إلى الكراهية  
والبغضاء والعدواة فيضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض ، أى يقتتلون فيما  
بينهم، مما يضيع هيبتهم ويغرى بهم أعداءهم ، ويجعلهم قصعة الأمم . إنهم يؤمئذ  
تخلوا عن المنهج الإسلامى الذى يقدم الروح على المادة ، والقيمة على الثروة ،  
والمعنى على الشكل ، والآخرة على الدنيا سعياً ، ليعيش المسلم فى أمن وسلام  
ورضاً ، أما إذا تعلق المسلم بزخرف الدنيا ومتاعها فهو بلا ريب يحيا فى اضطراب  
وقلق وعدم اطمئنان ، ويسلم نفسه للغواية مع الشيطان التى تنتهى بالدم  
والصراع والدمار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

\*\*\*\*

## دفاع الملائكة - ١

عن أبي هريرة رضى الله عنه - قال :

إن رجلاً شتم أبا بكر، ورسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - جالساً، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم - يعجب وابتسم، فلما أكره ردّ عليه بعض قوله، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم - وقام، فلحقه أبو بكر، فقال :  
يا رسول الله، كان يشتمنى، وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقلت !! قال : " إنه كان معك ملك يردّ عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأتعد مع الشيطان "...  
حديث صحيح أخرجه أحمد والطيبراني

في هذه القصة النبوية التي يحملها الحديث الشريف؛ منهج إسلامي يبين طبيعة التعامل الإنساني والسلوك الإجتماعي الذي ينبغى أن يسود بين المسلم والمسلم. بل بين المسلم وغيره، سعياً لبناء مجتمع إسلامي متماسك وقوي، يرقى أفراداه في علاقاتهم اليومية والإنسانية إلى مستوى عال من النضج والاحترام والتسامح والرفق.

إن الخلق الكريم هو أساس العلاقة بين أفراد المجتمع الإسلامي، بما فيه من غير المسلمين، وكان الوصف الأسمى الذي وُصف به الرسول - صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، هو قوله تعالى : "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القم: ٤)  
فالخلق سبحانه يصف نبيه صلى الله عليه وسلم بصاحب الخلق العظيم وهو ما يعنى أن قيمة الخلق العظيم في السلوك الإسلامي، تسبق أية قيمة أخرى، بل هي جماع كل القيم ..

وإذا كانت صفة الخلق العظيم للرسول - صلى الله عليه وسلم - هي تقرير الواقع الحقيقي الذي كان عليه نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - فهناك إشارات قرآنية إرشادية لتطبيق هذا الخلق العظيم، منها قوله تعالى :

"حَذِّ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف: ١٩٩٠)

وهى أمر مباشر بالعفو والمعروف والإعراض والبعد والتجاوز عن الحمقى وأصحاب الأخلاق غير الكريمة ، وهو ما يقود إلى التذكير بموقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى القصة النبوية التى بين أيدينا كما سنرى ، وهناك إشارة فى توجيهه عام لجمهور المسلمين حين يصطدمون بهؤلاء الحمقى أو سريعى الغضب أو سيئى الخلق حيث يصف الحق سبحانه عبادة المؤمنين بأنهم :

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (الفرقان: ٦٣)

و المسالمة خلقة أساسية من خلل المسلم الحق ، فهو ليس شتاماً ولا لقاناً ولا فاحشاً ولا بذياً ، والحديث الشريف صحيح فى ذلك ، حيث نقرأ قوله - صلى الله عليه وسلم - " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " .

و نقرأ له حديثاً آخر يتضمن هذا المعنى بصورة أخرى : " ليس المسلم بطعان ولا فاحش ولا بذىء " .

وهو ما يقودنا إلى فهم القصة التى بين أيدينا ، وفهم السبب الذى دفع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ترك المجلس الذى كان يجلس فيه مع أبى بكر ، وعدم رضاه عما رآه و سمعه .

لقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجلس مع أبى بكر رضى الله عنه وإننا برجل لم يحدد الحديث الشريف هويته ، من هو ؟ أو من يكون ؟ ولكنه بالتأكيد من المجتمع الإسلامى وقد جاء إلى المجلس ، ووجه الشتائم إلى أبى بكر رضى الله عنه .

و نحن نعلم من هو أبو بكر.. أول من أسلم من الرجال ، والصديق الذى آمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - و صدقه حين كذبه قومه ، وهو الذى كان ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . والصديق هو صاحب المواقف العديدة فى نصرته الإسلام و دعم المسلمين .. أبو بكر يثير غضب

الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين يرد بعض الشتائم على من شتمه ، فيترك المجلس ويغادره ..

ولا يَحْتَجِّنْ أَحَدٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ بِأَنَّ اللَّهَ بِأَمْرِنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :  
"فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى  
عَلَيْكُمْ ....." (البقرة : ١٩٤)

بردَ العدوان ، وكيل الصاع صاعين لمن شتمنا أو سبنا أو قذفنا . فهذا التوجيه خاص بالمواجهة مع الأعداء الذين يأتون بجيوشهم أو قواتهم المسلحة للإعتداء علينا أو غزونا أو إذلالنا . أما أخوة الإسلام و أفراد المجتمع الإسلامى فينبقى أن يسود الرقى الخلقى والتسامح الإنسانى فيما بينهم ...

و هذا ما فسّره الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأبى بكر - رضى الله عنه - حين تدارك الموقف و لحق بحبيبه - صلى الله عليه وسلم - يستكشف سبب مغادرته للمجلس ، وإحساسه بغضبه مما رأى وسمع .

فقد قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - " إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان . فلم أكن لأقعد مع الشيطان " .

إنذا هذا هو التفسير الأوّلى للمغادرة والغضب . حين كان أبو بكر - رضى الله عنه - يلقى الشتائم من ذلك الوافد على المجلس . فإن ملكا من الملائكة الكرام كان مع أبى بكر يرد عنه ، سواء بإحصاء سيئات الشتم أو بتسجيل الحسنات للمشتوم الذى هو أبو بكر وعندما قام أبو بكر ببرد بعض الشتائم ، انتهى دور الملك ، وبدأ دور الشيطان ، أو وقوع الشيطان و حلول فى المكان بين الشاتم و المشتوم ليشعل العداوة بينهما ، وهو ما يرفضه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا يرضاه لنفسه - وهو ما عبر عنه بقوله ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان " . و نلتقى مع تفسير أوسع وأرحب للموضوع فيما يلى .

\*\*\*\*

## دفاع الملائكة - ٢

غضب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وترك مجلسه مع الصديق أبى بكر رضى الله عنه لأنه ردّ بعض الشتائم على شاتمته . و أعلن عن غضبه مبينا لأبى بكر أن ملكاً كان يرّد عنه ، ولما ردّ هو وقع الشيطان ، وما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليقعد مع الشيطان ..

ثم فسر المسألة تفسيراً أوسع و أرحب حين قال صلى الله عليه وسلم : " يا أبا بكر، ثلاث كلهم حق : ما من عبد ظلم بمظلّمة فيغضى عنها لله - عزوجل إلا أعزّ الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية ؛ يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم

.....  
في هذه القصة النبوية الشريفة ، يلفت نظرنا موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حالين .

الحالة الأولى : هي تعجّبه و ابتسامه ، عندما جاء الرجل الذى شتم أبى بكر الصديق - رضى الله عنه .

الحالة الأخرى : هي غضبه و مغادرته للمجلس .

فلماذا ابتسم أولاً ، و لماذا غضب ثانياً ؟

الإجابة بسيطة للغاية ، وهى أن ابتسام الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان والله أعلم نوعاً من تهدئة الشخص الذى جاء يشتم أبى بكر ، و إشعاره بتجاوزه مما يحتم عليه أن يتراجع ويكفّ عن شتائمه وربما يسارع بالاعتذار لأبى بكر وترضىته ، ثم إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبتسم لدفاع الملك عن أبى بكر ، وردّه على الشاتم نيابة عنه .

أما الغضب ، فكان نيجة لأن أبى بكر أخذ يثار لنفسه ، ويردّ بعض الشتائم مما جعل الملك يتوقف عن الدفاع عنه ، ثم يقع الشيطان ، و عندما يقع

الشیطان معنی یحضر فی المجلس فإن الرسول - صلی الله علیه وسلم - لا یجلس فی مجلس فیہ شیطان لا یرید الخیر بالشانم أو المشتوم وهو ما یؤدی إلى شرّ مستحیلر بین الطرفین .

ولا ریب أن نهوض الرسول - صلی الله علیه وسلم - من المجلس کان تعبیراً عملياً عن رفض الإسلام لمنهج الإساءة المتبادل بین المسلمین . فالمسلم مطلوب منه ألا یرد علی أخیه المسلم الذی یشتمه فالملائكة تتولی الدفاع عنه ، ثم إن الصیر علی الأئبی له ثوابه وله تأثيره أيضاً علی من قام بالأئبی ، إذ یصبح فی وضع الظالم الذی یرفضه المجتمع ویتحاشاه حتی یكف عن أذاه ویستقیم علی الجادة ..

و الرسول - صلی الله علیه وسلم - یوضح ذلك لأبی بكر؛ رضی الله عنه . فی إطار أوسع وأرحب حین یوضح لأبی بكر ثلاثة أمور مهمة فی سلوك المسلم ..

**الأمر الأول :** هو أن التسامح مع المعتدی بالإساءة والشتم والأئبی ، ابتغاء وجه الله خیر وأبقى ، لأن الله یعزّ المتسامح المظلوم ، وینصره ، وهو ما یعنیه قوله - صلی الله علیه وسلم - " ما من عبد ظلم بمظلومة ، فیغضی عنها لله - عزوجل - إلاّ أعز الله بها وینصره " .

و مفهوم هنا أن الظلم هنا هو ما یتعلق بالعلاقات الشخصية ، بین فرد وآخر فالشخص الذی یظلم شخصاً آخر بالإساءة إلیه ، فیغضی عنه الآخر - أی یعفو ویتسامح تقرّباً إلى الله ، فإن الله سینصره وسیعزّه ، ویکافئه علی عفوه ویتسامحه بصورة وأخرى .

أما الظلم العام الذی یتعرض له الناس أو یتوجب قصاصاً من الظالمین ، فأمر آخر یحتم التصدی لرذّه ولیستقیم أمر المجتمع وتصلح الحیاة ، مع تقدیم العفو وتفضیله علی القصاص یقول تعالیٰ :

"وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ أَعْمَارِ" (الشوری: ٤٣)

وهناك دعوة عامة إلى جمیع أفراد المجتمع الإسلامی تدعوهم إلى المسارعة إلى الخیرات والجنة بالإنفاق فی سبیل الله وكظم الغیظ والعفوعن

الناس . وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعِيْظِ وَالْعَافِينِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران ١٢٣-١٢٤)

الأمر الثاني : يتمثل في العطاء لوجه الله ، وهو أمر يُقَرَّبُ ما بين الناس ، ويوطد علاقاتهم ، وعبر عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله :

"وما فتح رجل باب عطية ، يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة" . ونحن نعلم أن الحسنة بعشر أمثالها . وتأمل قوله - صلى الله عليه وسلم - فتح باب عطية ، كأن العطية بناء كبير له باب تفتحه النفس الخيرة ، الميالة إلى الجود والكرم ، فتربط ما بينها وبين الناس بصلة قوية وأصرة متينة ، وكان العطية ماء يطفى نيران الإساءة والأذى والتحرش بالآخرين .

أما الأمر الثالث و الأخير : فيأتى كأنه عكس الأمر السابق ، وهو "السؤال" أو الطلب من الغير دون ضرورة أو حاجة ، فهو وبال على صاحبه حاضراً ومستقبلاً ، فضلاً عن كونه صفة تتنافى مع العفة والترفع وعزة النفس ، وعبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك بقوله : " وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " فالغنى ليس بالمسألة ، وإنما بالقناعة وغنى

النفس ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أولئك الذين يترفعون عن المسألة :

.....تَحَسَّبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنِّي التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تَنَفَّقُوا مِن خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (البقرة : ٢٧٢)

أما المسألة لغير ضرورة ، فهي لا تورث غنى بل تورث فقراً وبؤساً .

إن مقابلة الشتم بالشتم ليست من أخلاق الإسلام ، وقد قدم لنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - درساً عملياً من خلال ما حدث لأبي بكر رضى الله عنه ، وأوضح لنا كيف تكون العلاقة بين الناس قائمة على المودة والتسامح والتعاطف والعطاء والتعفف .

## قصة غزوة بدر و الأسرى - ١ -

عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حدثه فقال :

لما كان يوم بدر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - القبلة ثم مدّ يده فجعل يهتف بربه :

" اللهم أجزلى ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ."

فما زال يهتف بربه ماداً يديه ، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فاتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فآلقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال :  
يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عزوجل :  
"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُرْدِفِينَ"  
(الأنفال: ٩)

(حديث صحيح ، أخرجه مسلم وآخرون)

تمثل غزوة بدر في التاريخ الإسلامي لحظة فارقة بين الاستضعاف والقوة بين الذلة والعزة ، بين الوجود والهش المحاصر ، والوجود الراسخ الحر... غزوة بدر بداية المرحلة التي أخذ فيها الإسلام يفرض فيها ذاته وكيانه وحاضره ومستقبله على الخصوم والأعداء والمنافقين والمتريصين ... إذ إنها حققت لأول مرة انتصاراً عسكرياً ينجزه المسلمون في الميدان ، مع اتساع الفارق بين قوتهم وقوة أعدائهم .. فقد كانوا يمثلون قوة صغيرة ضعيفة بالقياس إلى قوة الأعداء التي تملك تفوقاً كبيراً في العدد والعدة أو الأفراد والسلاح ، وكانت نتيجة المعركة خسارة فادحة للأعداء

: إذ فقدوا ما يقرب من سبعين قتيلاً بينهم عدد لا بأس به من قياداتهم المؤثرة ؛ فى مقدمتهم أبو جهل ، العدو اللدود للإسلام . كما فقدوا سبعين مقاتلاً آخرين ، وقعوا فى أسر المسلمين ، ولم يفرج عنهم إلا بعد ظروف معينة عايشوا فيها قسوة الهزيمة ، ورأوا انتصار الإسلام ، وتفاعلوا مع المجتمع المسلم سلباً و إيجاباً من خلال القيم والسلوكيات التى تحرك بها المسلمون فى مرحلة القتال وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ..

لقد تناول القرآن الكريم قصة غزوة بدر فى سورة الأنفال ، و أشار إليها فى بعض السور الأخرى ، كما وردت أحاديث نبوية شريفة تتحدث عنها وتسرده وقائعها وأحداثها ، وفى هذا الحديث الشريف ، يقوم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بسرد أحداث الغزوة من وجهة نظرة على لسان عبد الله بن عباس ، ولكن المحور الأساسى فى رواية عمر هو الإشارة إلى موضوع الأسرى المشركين الذين وقعوا فى قبضة المسلمين وهو موضوع اقتضى مشاورة بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ونزل فيه الوحي ليعلم المسلمين كيفية التصرف فى مثل هذا الموضوع الخاص الذى تكتنفه ملبسات خاصة .

لقد وقعت غزوة بدر عند بئر على مشارف المدينة المنورة ، كان صاحبها يسمّى بدرًا ، وصار هذا الاسم علماً على هذه الغزوة التى جرت فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان يوم الجمعة .

كان عدد المشركين المقاتلين ألف رجل ، فيهم كثير من الفرسان ، مسلحين بأفضل الأسلحة ، ومعهم كثير من المون والاسعدادات . كما كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، وكان تسليحهم محدوداً . ومعظمهم كان راجلاً . أى يسير على قدميه بلا خيل ولا ركاب ..

" اللهم أنزلى ما وعدتنى ، اللهم أت ما وعدتنى . اللهم

إن تهلك هذه العصاة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض " .

الدعاء وسيلة من وسائل طلب النصرة من الله سبحانه جل وعلا ،

المسلم يلجأ إلى ربه لينصره ويعزده فى ظل تفوق العدو وهيمته القتالية ، والنبى -

صلى الله عليه وسلم - يقدم القدوة للمسلمين كى يتضرعوا إلى الله ويطلبوا منه

العون والماندة والثبات فى مواجهة عدوهم .. إن الدعاء صلاة ، والعبد أقرب ما

يكون إلى ربه وهو يصلى ويسجد ، يستجيب له ، ويمن عليه بأفضاله ونعمائه ، وقد

دعا النبى - صلى الله عليه وسلم ربه ، لينجز له وعده بالنصر أو الغنيمه . وكان

تضرع النبى - صلى الله عليه وسلم صادقا ومخلصا ومنطقيا :

اللهم إن تهلك هذه العصاة ، أى هذه الجماعة المسلمة ، أو جماعة

المسلمين أو أهل الإسلام ، لا تعبد فى الأرض ، أى إن الرسول - صلى الله عليه وسلم

يطلب النصر من ربه ، حتى تستمر عبادته ، ويستمر ذكره فى الأرض ، من خلال

المؤمنين به المطيعين له . وإلا فإن هزيمتهم تعنى هزيمة الإسلام والقضاء عليه .. وقد

استجاب الله للنبى - صلى الله عليه وسلم - وأنجز وعده .

\*\*\*\*

## قصة غزوة بدر و الأسرى - ٢ -

قال ابن عباس : رضى الله عنهما : بينما رجل من المسلمين يومئذ (أى يوم بدر) يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم . فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً ، فنظر إليه ، فإذا هو قد خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال :

” صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة .”

فقتلوا يومئذ سبعين و أسروا سبعين .”

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : ° ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ ° . فقال أبو بكر - رضى الله عنه :

يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- ” ما ترى يا ابن الخطاب ؟”

فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه وتمكنى من فيلان - نسيبا لعمر - فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وصناديدها فهوئى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت .... °

حين رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الفارق الشاسع بين قوة المسلمين وقوة المشركين . و تفوق الآخرين ، ابتهل إلى ربه مناشداً وهاتفاً حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، أى كتفيه ، وكان يدعو ربه لينجز وعده للمسلمين . قام أبو بكر رضى الله عنه وأخذ رداءه - صلى الله عليه وسلم - وألقاه على كتفيه ، ووقف من ورائه قائلاً : يا نبي الله ، كذاك مناشدتك ربك ، أى كفاك مطالبة ربك ، فقد وعدك بإحدى الطائفتين : العير أى القافلة التى تسوقها قريش بزعامة أبي سفيان ، أو النفير أى مقاتلة جيش المشركين والانتصار عليه ، وسينجز الله وعده الذى وعدك به .. وقد تحقق هذا فعلاً بفضل الله وكان النصر على الجيش الذى جاء بعد الإمداد بالملائكة .

قال تعالى : "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِمْ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال: ٩-١٠) و لا شك أن الدعاء الخالص لوجه الله سبحانه يجد القبول والإستجابة وهو ما رأيناه فى غزوة بدر ، حيث استجاب الله لدعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأنزل الملائكة يقاتلون مع المسلمين الذين كانوا أقلية ضعيفة . ولكنها أقلية مؤمنة أخذت بالأسباب ، و أعدت العدة التى تقدر عليها . وقاتلت بصبر و استماتة و طلباً للشهادة وهو ما جعل نتيجة المعركة على غير ما توقع الناس ، إذ كان المتوقع وفق الحسابات المرتبة هو انتصار قريش المشركة ، الأكثر عدداً و عدّة ، ولكن النتيجة أن المسلمين الأقل عدداً و عدة هم الذين انتصروا ، وكان انتصارهم ساحقاً وداوياً إذا أسروا سبعين مقاتلاً من قريش ، و قتلوا سبعين آخرين منهم .

لقد تمثلت نصرة الله للمسلمين فى إمدادهم بالملائكة ، وفى قصة المشرك الذى خرّ مستلقياً أمام الفارس ما يشير إلى هذا الإمداد ، فقد سمع رجل من

المسلمين وهو يشتد في أن يرذل من المشركين ضربة سوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، وحيردم شراسم فرس الملك الذي كان يطلب منه الإقدام ، أى الكرّ على الأعداء . وسوف نجد أن المشرك الذي استلقى على الأرض أو انبطح عليها قد حطم أنفه . أى جرح أنفه أو صارت عليه علامة جرح . وشق وجهه كأنه أثر من ضربة السوط ، وحين يبلغ أنصارى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، فيقول : " صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة " ...

أى إن ما جرى للمشرك ، هو نتيجة ما فعله الملك البنى أنزله الله من السماء الثالثة مع آخرين لمقاتلة المشركين ودعم المسلمين فى محنتهم التى يواجهون فيها قوة أكبر منهم وأعظم تسليحاً وإعداداً .

لقد كانت نتيجة المعركة مذهلة . نصر وأسرو ، ويبدو أن المسلمين آنذ لم يتوقعوا أن ينشأ لديهم وضع جديد غير مسبوق ، وهو أسر سبعين مشركاً من مقاتلى قريش ماذا يفعلون بهم ؟ أو كيف يتصرفون معهم ؟

وهنا نرى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلجأ إلى مشاورة المسلمين ، فليس لديه تشريع يهدى فى هذه المسألة . وكان أمر الأسرى فى هذا الزمان غير خاضع لقانون أو عرف . كان التصرف فى الأسرى خاضعاً لما يراه المنتصرون ، وهو ما فعلته الأمم المتحاربة وأهمها يومئذ الفرس والروم . لم تكن هناك قاعدة ثابتة أو نظام متفق عليه

كان هناك من يقتل الأسرى ، وكان هناك من يستعبيدهم وحولهم إلى عبيد يباعون ويشترون ، وكان هناك من يقايض بهم مع قومهم المهزومين ، أو يجعل لهم ثمناً يفتديهم أو يدفعه ذروهم ؛ وقادتهم من قومهم المهزومين ..لذا كانت المشاورة يعد غزوة بدر هى الطريق الأمثل لمواجهة أمر الأسرى المشركين .

\*\*\*\*

### قصة غزوة بدر و الأسرى - ٣ -

بعد أن استشار الرسول - صلى الله عليه وسلم - صاحبه أبا بكر وعمر في أمر الأسرى الذين أسرهم المسلمون في غزوة بدر، يقول عمر رضى الله عنه :  
" فلما جئت من الغد ، جئت فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر قاعدين يبكيان .

قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟!  
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :-  
" أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابهم أو فى من هذه الشجرة ."

شجرة قريب من نبي الله - صلى الله عليه وسلم - و أنزل الله عزوجل :  
" مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُدَّ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾  
لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَقَى لِمَسْكَمٍ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾  
فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ...."  
(الأنفال: ٦٧-٦٨)

فأحل الله الغنيمة .

كان وجود سبعين أسيراً مشركاً فى قبضة المسلمين ، بعد غزوة بدر ، مسألة مهمة تحتاج إلى تصرف يعالجها ، فهؤلاء الأسرى كانوا يقاتلون المسلمين ، وجاءوا إلى بدر معتدين ، وبعضهم من قادة الشرك والعدوان ، ولذا طرح الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمرهم على المسلمين ، فالتصرف معهم ، لم يرد فيه وحى ، أو أمر من السماء .

وكان أبو بكر و عمر أبرز أصحاب الرأي والمشورة في المجتمع الإسلامي آنئذ . واستشارهما الرسول - صلى الله عليه وسلم . فرأى أبو بكر - رضى الله عنه - أن تؤخذ منهم فدية تكون قوة للمسلمين على الكفار ، وكانت أسباب رأيه تتلخص في كونهم أي الأسرى - أبناء العم والعشيرة ، أي أقارب للمسلمين ، وأن الفداء يمكن أن يكون طريقاً لهدايتهم إلى الإسلام ، فضلاً عن كون الفدية وسيلة من وسائل قوة المسلمين .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه - فقد كان رأيه مخالفاً لرأي الصديق أبي بكر وكان يرى أنه لا بد من قتلهم ، وأن يقوم الصحابة بقتل الأسرى من روعس الكفر ولو كانوا من أقاربهم ، فيقتل عليّ عقيلاً ، ويقتل هو - أي عمر - صهراً له .. وهكذا ، وحجته في ذلك أن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، أي أشرف الكفار ، وهم كبار الكفرة وأشرارهم .

لم يأخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - برأي عمر ، ولكنه أخذ برأي أبي بكر ' فهوى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قاله أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ... ' ولا ريب أن علاقة النسب والقربى ، والأمل في الهداية ، كانت من وراء موافقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رأى أبي بكر ، ولكن الوحي جاء موافقاً لرأي عمر وهو ما جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبا بكر - رضى الله عنه - يبكيان ، مما أثار تساؤل عمر عن سبب البكاء ..

لقد اتخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - الموقف السليم ، وهو الشورى أو المشاورة أو طلب الرأي من أصحاب ، فيما عرض له من أمر الأسرى ، إذ لو كانت هناك قاعدة شرعية معروفة ، ما احتاج إلى المشاورة ، ولطبق هذه القاعدة تلقائياً ..

و يبدو - و الله أعلم - أن الحق سبحانه أراد أن يعلم المسلمين درساً في كيفية التصرف عندما لا يوجد نص ، أو قاعدة شرعية ، إذ يتوجب عليهم أن يتشاوروا و يطرحوا الآراء المختلفة بأسانئدها وأسبابها ومسوغاتها ، وعليهم

بعدئذ أن يرجحوا ما يرونه موافقاً لصلحة المسلمين ، وقد وردت بعض الآيات التي تؤكد على الشورى مثل قوله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم :

"...وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ... (ال عمران ١٥٩)

و حين يتحدث عن صفات المؤمنين ، عد الشورى واحدة من صفاتهم قال تعالى : "...وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ....." (الشورى ٣٨)

وهناك أحاديث ومأثورات تتحدث عن قيمة الشورى وأهميتها في حياة المسلمين

بيد أن المسألة بالنسبة للأسرى في غزوة بدر ، كانت أكبر من ذلك إذ إن القوم حين اعتدوا على المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وجاءوا لمحاربتهم ومقاتلتهم عند بدر كانوا يقصدون إلى إفنائهم قصداً ، وكانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام قضاء مبرماً لولا نصر الله ، وإمداده المسلمين بالملائكة ، و نزلت

الآيات الكريمة توضح ذلك : "مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ ثَرْيُدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"

(الأنفال ٦٧-٦٩)

لقد بكى النبي - صلى الله عليه وسلم و أوبكر رضى الله عنه ، خوفاً من عذاب الله ، وعرف أن قبول الغنية في هذه الحال ، والمسلمون لم يتمكنوا في الأرض بعد - هو إغراء للكافرين بالاستهانة بهم ومعاونة الكرة عليهم . وكان الواجب إنقاذهم بالجراح حتى لا يستطيعوا قتالاً في الأرض .. ولكن الحق سبحانه يقدر للمجاهدين جهودهم ويعفو عن الخطأ الذي وقعوا فيه ، ويحلل لهم الغنائم ، ويدعوهم إلى التقوى والتوبة فهو الغفور الرحيم .

لقد كانت غزوة بدر في أسبائها وسياقها ونتائجها ، درساً مستمراً ينبغي على المسلمين في كل زمان ومكان استيعابه والاستفادة منه .. فهو درس عظيم بكل المقاييس .

## قصة إسلام صحابي جليل (1)

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : بعثت بنو سعد ، ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدم عليه ، و أناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس فى أصحابه ، وكان ضمام رجلاً جليداً أشعرنا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أصحابه ، فقال : أياكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أنا ابن عبد المطلب " .  
قال : أمحمد ؟ قال : " نعم " .

قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة ، فلا تجدن بها على فى نفسك .

قال : " لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك " .

قال : أنتشك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ،  
آله بعثك رسولاً ؟

قال : " اللهم نعم " ، قال : فأنتشك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنقاد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : " اللهم نعم " ..

حديث صحيح أخرجه أحمد و أبو داود وآخرون

تمثل قصص إسلام الصحابة عموماً نموذجاً للبحث عن الحقيقة والسعى إلى اكتشافها وفقاً لمعايير العقل والإخلاص والتدبر، ومن ورائها جميعاً توفيق الله تعالى و هدايته ، وبالإضافة إلى ذلك ، فهى تقدم دليلاً عملياً على عناية الإسلام بالعقل والتفكير ، فقد جعلهما مدخلاً إلى العقيدة والإيمان ، وهو ما يزد

على الذين يسيئون إلى الإسلام ويتفون عن شريعته احترام العقل والتفكير، وما أكثر الآيات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم تحض على استخدام العقل والتفكير والتدبر والتأمل وفي الوقت ذاته تزرى بالتقليد والمقلدين، والذين يتبعون غيرهم دون تفكر أو تعقل والصحابي الجليل في هذه القصة " ضمام بن ثعلبة " من بنى سعد واحد من الذين دخلوا إلى ساحة الإسلام من خلال العقل والتفكير. أي أصبح مسلماً بعد اقتناع عقلي وفكري بصدق الرسالة والرسول .

إن القصة النبوية الشريفة تصف لنا ضمناً وصفاً خارجياً مباشراً ، كما تصفه لنا من الداخل وصفاً ضمناً عبر الحوار .

فهو من الخارج رجل جلد ، أي قوى البنية شديد البأس ، وهو أشعر ، أي غزير الشعر الذي يغطي أنحاء جسده ، وخاصة الأطراف وهذا ما جعله يعقص شعره أي يصفه في صفيرتين أو غديرتين ، وهذه طبيعة الناس في البادية في ذلك الزمان مما يدل على القوة والخشونة عموماً لمواجهة قسوة الصحراء أو البيئة التي تتطلب ذلك النوع من الرجال الذي يقدر على التكيف معها .

و سوف نرى من الحوار أن هناك طبيعة خشنة قوية ، تتلبس ذلك الرجل القادم من بنى سعد ليكتشف من هو محمد ؟ وما هو الدين الجديد الذي جاء به ؟ وهل هو حقيقي أم لا ؟

ولا يشك أن الرجل وقد بعثه بنو سعد ، فقد زودوه بطرف من تاريخ محمد ونسبه تلحظه في سؤاله الخشن : أيكم ابن عبد المطلب ؟

وعبد المطلب هو جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان مشهوراً في الجاهلية وأرتبط اسمه بحادث أبرهة الأشرم الذي جاء مكة بأفياله غازياً يريد أن يهدم الكعبة وقد تصدى له عبد المطلب طالباً منه أن يترك ممتلكاته أما البيت فله رب يحميه ، وقد رد الله أبرهة على عقبه بعد أن أرسل عليه وعلى قومه طيراً

أبائيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . إنأ عبد المطلب له شهرة داوية وله صيت ذائع ولذا رأينا ضمام بن ثعلبة ، لم يسمّ محمداً باسم أبيه عبد الله ، ولكنه نسبه إلى جدّه عبد المطلب الذى تعرف الجزيرة العربية سيرته . ولا ننسى أن عبد المطلب هو الذى روى محمداً وهو صغير بعد أن فقد والده عبد الله ، ومهما يكن من أمر ، فإن ضمام سأل عن ابن عبد المطلب . وأجاب النّبى - صلى الله عليه وسلم - دون غضاضة أو انفعال : أنا ابن عبد المطلب !

النّبى - صلى الله عليه وسلم - هو الداعية ، والداعية لا بد أن يصير ويحتمل ، حتى لو كان المدعو خشناً وفظاً فى كلامه وسؤاله ، وإلا ما استحق شرف الدعوة ، إن ضمام بن ثعلبة يعلن دون موارد أنه سيسأل ابن عبد المطلب ، وسيغظ عليه فى السؤال ، ولكنه يطلب منه أن لا يغضب عليه و ألا يحمل فى نفسه شيئاً منه ، ويجيبه الهادى البشير بصبر الداعية و أخلاق الدعوة :

" لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك " أى إنه يخبره أن نفسه صافية لا تعرف الغضب من أجل النفس ، ولكنها تحتمل فى سبيل الدعوة ..

وهنا نجد السؤال الأول من ضمام يتعلّق بصدق الرسالة والرسول .. أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : الله بعثك إليه رسولاً ؟ فيجيبه النّبى صلى الله عليه وسلم - ببساط شديدة مؤكداً بعثته : اللهم نعم ، وسنرى الحوار يمتد ليتأكد ضمام من صدق الرسالة والرسول كى يدخل الإسلام .

\*\*\*\*

## قصة إسلام صحابي جليل (٢)

كان ضمام بن ثعلبة فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قد قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - وأغظ في سؤاله أو أسئله التي توالى على النحو التالى : " قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة ، فريضة ، الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها ، كما ينشده فى التي قبلها حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وساؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيه راجعاً .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن صدق ذوالعقيصتين دخل الجنة " قال : فأتى بعيه فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ! قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون !! قال : ويلكم إنهما والله لا يضران ، ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه . قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً . قال ابن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة .

.....

يبدو ضمام بن ثعلبة فى هذه القصة يسعى من خلال الإغلاظ فى القول للرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى اكتشاف الحقيقة المقتعة . فقد جاء من بنى سعد ليعلم هل هذا الدين الجديد حق أم باطل ، ولأنه رجل لا يهوى تضييع وقته سدى أو فيما لا يفيد ، فهو يريد أن يصل إلى الصواب فى هذا الأمر الذى أثار حركة

فكرية عارمة فى أنحاء الجزيرة العربية كلها ، ما بين مؤيد ومعارض ، بين من يريد الحفاظ على التقاليد و عبادة الأصنام ، ومن يريد التعرف على الحقيقة و اتباعها مهما كان الثمن ..ومن ثم ، فإن ضمام بن ثعلبة يغلظ فى أسئلته و يخشن ، و يقدم لهذه الأسئلة تقديماً يجعل المسؤل أيا كان لا يجيب بغير الحقيقة ، فهو يبدأ السؤال بمناشده المسؤل بالله " أنشدك الله إلهك و إله من كان من قبلك و إله من هو كائن بعدك .. " ثم يطرح سؤاله عن البعثة و التوحيد و خلع عبادة الأصنام ، و فرائض الإسلام و الشرائع كلها .. و الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجيبه بعبارة مؤكدة و قاطعة : " اللهم نعم " ..

ومن الأسئلة و الإجابات التى تتدرج فى تصاعد شائق يشد المستمع أو القائمة إلى القصة النبوية الشريفة ، نجد " ضاماما " يقنع بالإجابات ، و يرتب عليها قراره التاريخى بإعلان الشهادتين و الدخول إلى ساحة الإسلام الخضراء الرحبة .. و يعلن أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه سيؤدى الفرائض التى فرضها الإسلام و الشرع الحنيف و سيجتنب ما نهى عنه ، ولن يزيد ولن ينقص . ثم ينصرف إلى بعيره راجعا إلى قومه .

وهنا تكون البشارة النبوية المشروطة حيث يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم " إن صدق ذو العقصيتين دخل الجنة " إى إن صدق ضمام بن ثعلبة صاحب الضفيرتين أو الغديرتين فى إسلامه فهو من أهل الجنة .  
هذه البشارة المشروطة كأنها حقيقة ، فقد رجع ضمام إلى قومه ، وحين وصل عندهم اجتمعوا به ، و بدأت تسقين ملامح صدقه و إخلاصه للدين الجديد ، و لقد كان أول من قاله لهم : " بنسبت اللات و العزى ! "

إنها صدمة فاحشة لقومه الذين يعبدون اللات والعزى ويقدمونهما ،  
وها هو ضمام يعود من لدن محمد - صلى الله عليه وسلم - فيذمّ آلهتهم وفي  
مقدمتها " اللات والعزى " مما يدفعهم إلى نهره ومطالبتة بالسكوت ، وتخويفه من  
الإصابة بالبرص والجذام والجنون !

" مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !!"

ولكن الرجل العاقل الذى اقتنع بالإسلام وآمن به يردّ عليهم رداً عقلياً  
ومنطقياً غاية فى البساطة، بعد أن ينذرهم بالويل والهلاك إذا استمروا على حالهم .  
" ويلكم ، إنهما والله لا يضران ، ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً ،  
واتزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك  
له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتمكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

لقد ترتب على هذا الإقناع العقلى المنطقى أن قوم ضمام ، رجالاً  
ونساءً أمسوا مسلمين لله وحده ، تاركين عبادة اللات والعزى ، داخلين إلى ساحة  
الإسلام الخضراء الرحمة كما سبق وأن دخلها ضمام .

إن قصة إسلام ضمام بن ثعلبة تقدم لنا من خلال حوارهِ مع  
الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قومه من بعد ، نموذجاً للعقل الإنسانى حين يتجرد  
من الغرض والهوى ويسعى إلى معرفة الحقيقة والصواب ، مهما كلفه ذلك من  
مشقات والتزامات وهو ما يؤكد على احترام الإسلام للعقل والتفكير ، ويقدم  
برهاناً على ذلك أمام الخصوم وأعداء الإسلام الذين يصمونهُ بالخرافة والأسطورة..  
إن الإسلام دين الفطرة السليمة التى تؤكد على ملكية الإنسان المسلم لأجمل نعمة  
من نعم الله ؛ وهى العقل السليم الذى يقود صاحبه إلى آفاق الحرية والعمل  
والإنتاج والقوة والإبداع وقبل ذلك الإيمان والتوحيد .

\*\*\*\*

## زجة مباركة

عن عائشة . رضی اللہ عنہا . قالت : لما قسم رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم سبايا بنی المصطلق . وقعت جویریة بنت الحارث فی السهم لثابت بن قیس . أو لابن عم له . فکاتبته علی نفسها . وكانت امرأة حلوة ملاحه لا یراها أحد إلا أخذت بنفسه . فأتت رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم - تستعینہ فی کتابتها .

قالت عائشة : فواللہ ما هو إلا أن رأيتها علی باب حجرتی فکرهتها . وعرفت أنه سیرى منها - صلى اللہ علیہ وسلم - ما رأیت فدخلت علیہ . فقالت : یا رسول اللہ . أنا جویریة بنت الحارث . سید قومه . وقد أصابنی من البلاء ما لم یخف علیک فوقعت فی السهم لثابت بن قیس بن الشماس أو لابن عم له . فکاتبته علی نفسی . فجئتک أستعینک علی کتابتی . قال : " فهل لك خیر من ذلك ؟ " .

قال : " أقضى عنک کتابتک و أنزوجک " . قالت : نعم : یا رسول اللہ . قال : " قد فعلت " .

قالت : و خرج الخبر إلى الناس أن رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم - قد تزوج جویریة ابنة الحارث .

فقال الناس : أصر رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم - و أرسلوا ما بأيديهم . قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنی المصطلق . فما أعلم امرأة كانت أعظم علی قومها بركة منها .

حديث صحيح . أخرجه أحمد و تabin سعدون و أبو داود و غیرهم .

.....

هذه قصة مهمة لأن لها أبعاداً عديدة . و هي فی الوقت نفسه تقدم لنا أحداثها من خلال تشويق واضح . تصنعه الغيرة . والأسر . والتسامح . وتأتى فی سياق انتصار الإسلام المتصاعد علی أعدائه و إخضاع خصومه لمنطقه العادل . وتشريعه الإنساني .

لقد انتصر المسلمون في غزوة بنى المصطلق على محاربيهم ، و أخضعوهم ،  
 وأمّنوا شرهم ، وكما هي طبيعة الحرب في ذلك الزمان ، كان الغالب يستحوذ على  
 المغلوب ويغنم ممتلكاته و أهله .. وبعد أن تضع الحرب أوزارها يبدأ المنتصرون في  
 تقسيم الغنائم وفقاً للتشريع السائد ، وكانت سورة الأنفال ، قد أوضحت تقسيم  
 الغنائم عند المسلمين في قوله تعالى : "يسالونك عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ  
 لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
 وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"  
 (الأنفال: ١٠)

و قوله تعالى في السورة ذاتها :

"وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ  
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ آمِنْتُمْ  
 بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ  
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"  
 (الأنفال: ٤١)

وعند تقسيم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم  
 لثابت بن قيس أو ابن عم له ، أي صارت ملكاً له بوصفها أمة أورقيقاً يتصرف  
 فيها كيف شاء وفقاً لنظام الرق السائد آنذ في العالم كله .. ولكن الإسلام وضع  
 نظاماً يتيح للإرقاء أو العبيد أن يحرروا أنفسهم وذلك من خلال " المكاتبه " أي  
 الاتفاق بين العبد وسيدها على دفع مبلغ معلوم أو القيام بعمل معين إلى أجل  
 معين ، تخليراً للحرية والانعقاد من الأسر.

و قد كتبت " جويرية بنت الحارث " سيدها ، لتنال حريتها وعتقها  
 وقد ذهبت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عرضاً أفضل ، وهو الزواج منها مقابل قضاء ما  
 التزمت به لسيدها . فقبلت جويرية هذا العرض ووافقت على الزواج ، الذي كان  
 سبباً في عتق مائة أهل بيت من بنى المصطلق .

كانت هذه الزيجة المباركة خيراً وبركة على أهل جويرية ، حيث تم فك أسرهم وتحريرهم ، وما عُرفت امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .  
و سوف نرى أن حركة الأحداث فى القصة تتصاعد لتكشف عن طبيعة النفس البشرية والعلاقات التى تحكم الإنسان بأخيه الإنسان سواء كانت علاقات فطرية أم غيرها .

هاجُن نجد عائشة رضى الله عنها ؛ تستشعر بطبيعة الأنثى غير واضحة من أنثى أخرى وصفتها بأنها " امرأة حلوة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه " ، أى إن جمالها يؤثر على من يراها ، وحين علمت أنها أى هذه الأنثى الحلوة " جويرية " تريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها ما رأت . والغيرة الأنثوية أمر طبيعى بين النساء ، وخاصة إذا كانت الأخرى ستشاركها الرجل الذى تحبه ، ولكن الغيرة هنا لا تتعدى الطبيعة الفطرية إلى التعبير السلوكى الذى يتخذ أشكالاً غير طبيعية تصيب الآخرين بالأنى والألم .  
ولا شك أن زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان لغاية أخرى تتجاوز مجرد الزواج والبناء بامرأة من النساء ، وهذه الغاية تنضج من خلال القصة التى تشير إلى تأليف المجتمع الإسلامى وترابطه ، فزواجه - صلى الله عليه وسلم - من جويرية انعكس على أهلها الذين أطلق سراهم وصاروا أحراراً يخدمون المجتمع الإسلامى ويعززون قدرته ويدافعون عنه ، بعد أن كانوا خصوماً له وأعداء .  
و نلاحظ أن هذا الزواج انعكس أيضاً على المسلمين الذين شاركوا فى الفرح وأرسلوا ما بأيديهم أى الهدايا تعبيراً عن سرورهم بما تم فى بيت النبوة ، مما يعنى أن نفوسهم خلت من الغضاضة تجاه بنى المصطلق الذين صاروا إخواناً لهم فى الدين .

لقد كانت " جويرية " امرأة ذكية بحق أراد الله لها الخير كل الخير - حين قبلت عرض الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وتزوجته ، فأكرمها وأكرم قومها .. هذا وبالله التوفيق .